الطرائف

من تراثنا الشعري

تميم بن المعز الصنهاجي

أبو القاسم الفزاري

علي بن الإيادي

علي دب

عبد الجبار الشريف

الشركة التونسية للتوزيع

7

Bibliotheca Alexandrina

0022079

92

طرائف الأدب العربي

من تراثنا الشعري

تميم بن المعز الصنهاجي
أبو القاسم الفزاري
علي بن الإيادي

عبد الجبار الشريف

علي دب

الشركة التونسية للتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

© الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج – تونس - 1982

المقدمــة

هذه السلسلة من «التراجم الأدبية»

حين فكرنا في كتـابتها كانت أمامنا جملة من الأسباب والرؤى تدعونا جميعها إلى تذكير الأجيال بأدباء لاقوا من الإنكار والإهمال ما جعلهم يتألمون وتتصاعد النقمة فيهم، لمجتمع أعطوه الفكر والثقافة فجازاهم بالتحقير والنسيان ...

هذه المعاناة النفسية أثرت على المردود الأدبي وبدلا من الابتكار والخلق والتعبير عن الخصوصية الذاتية داخل شخصية الأمة العربيـة، بدلا من هذا كله بـادروا إلى المحـاكاة والتقليد لا عن اقتناع ولكن إرضاء لمجتمع رفض الإبداع وأوحى لمفكريه بالاجترار والسير في الطرقات المعبـدة ...

ونحن حين كتبنا هذه السلسلة لم تغب على أذهاننا حقيقة الصراع والمركبات النفسية التي فرضت على أدباء تلـك الحقبة ولم تتح لبعضهم الظروف المادية والمعنوية ومختلف قوى الصراع حتى الاصداع بما يحسون به ويتطلعون اليه ... لهذا رأينا ازدهار النقد والتنظيـر وصفاء ملكة الذوق لكن لم يصاحب هذا جودة في الإبداع تواكب الطموحات ...

ومع ذلك ورغم كل شيء كانوا صورا لعصورهم ولو أن بعضها مهزوزة أو غير متكاملة أو أشعرتك بألوان أخرى وسمات

معروفة ... هذه الصفوة من الأدباء ملؤوا أزمنتهم بحق وإن لم ينصفوا بالتعريف والتقييم ... وتلك عادة سيئة ما زلنا نعاني من مخلفاتها اذ نطلب ما عند غيرنا بالحاح وننسى أننا نساهم اذا أردنا في إثـراء ثقافتنا العربيـة وهي لم تكن ثرية وغنية الا بروافدها الكثيرة . وتناست أجيالنا المتعاقبة أننا بعض تلك الروافد وان من ينفق من تراثه وحضارته بدون إضافة سرعان ما يجد نفسه يعيش حالة الكفاف والتقتير والتبعية . وفعلا بادرنا الى اتهام أدبنا بالضحالة والتقليد عوضا عن تقييم التجارب وعمن يتحمل المسؤولية ... ولم نقل مع القائلين لا كرامة لنبي في قومه ، ولكننا بادرنا باصدار هذا الجهد المبسط لادباء بقيت أسماؤهم كبيرة على مر العصور ، ولكن الكثير من أجيالنا لا تتعدى معارفهم غير الاسماء ، ولا يتصورون عنهم حتى معلومات وجيزة تخبرهم بأهم السمات الفكرية لاولئك الأدباء ... لا نبالغ في اطراء هذه السلسلة فهي تبقى في طور المحاولة والتعريف وهي مهما كانت طموحاتنا تبقى في مرتبة الاضافة لما كتب من الذين سبقونا ... وإن كان لنا من فضل فهو توخي المعلومات الدقيقة واثبات المراجع التي اعتمدنا عليها ولا مزية لنا في ذلك ولكن الأمـانة العلمية وأصول البحث الجديدة جعلتنا نفيد بقـدر ما نستفيد .

ونأمل أن نجد من الوقت والتشجيع ما يدفعنا لمواصلة هذا الجهد وتعميم التجربة لتشمل الأدب المنسي عبر العصور ولتسحب التجربة حتى على أجيالنا الحالية وهي ما زالت تعاني

مما عانى منه القدماء فالشكوى واحدة «والبلية متصلة» وإن تبـاعد مـا بين الأجيال

علي دب وعبد الجبار الشريف

رادس في 24 ـ 6 ـ 80

تميم بن المعز الصنهاجي

أصح وأعلى ما سمعنا عن الندى عن الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

هذا المقطع من قصيدة لابن رشيق مدح بها «تميم» بن المعز الصنهاجي (+).

وان قبلنا هذه الصفات بتحفظ، وحذرنا من تزيدات الشعراء ذات النزعات المادية والدوافع التكسّبية، فإن التاريخ – والتاريخ أنصف حكم – يؤكد لنا كرم تميم وعطفه على الأدباء والشعراء في عصره وقد شاركهم في الهواية ونازعهم في مكابدة مهنة الأدب، وإن امتاز عليهم بالترف المادي وربما الفني أيضا، فهذا ابن خلكان يثبت أن تميما «كان يجيز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل (1)».

(+) تميم بن المعز الصنهاجي هو غير تميم بن المعز الفاطمي فكلاهما شاعر وأمير غير أن الأول عاش في القيروان والمهدية والثاني في مصر وهو ابن المعز لدين الله الفاطمي وله ديوان مطبوع .

(1) وفيات الاعيان لابن خلكان ص /122 .

عصر الشاعر

يمتد العصر الصنهاجي من «973 إلى 1058م» ويعد من أزهى عصور القيروان وأرسخها قدما في السياسة والأدب، اذ لم تنحصر النهضة الأدبية في عاصمة الدولة وإنما شملت مدينة المهدية العاصمة الثانية وانتقلت إلى مدن القطر الهامة مثل: قفصة وصفاقس وقابس وباجة وتونس (1).

ولربما التجأت أصول هذه النهضة من المشرق- فرارا من جور الحكام - إلى احضان المغرب كبديل للمشرق العربي وقد بدأ ينخر كيانه الضعف وتنهكه التيارات السياسية المتناحرة المتكالبة على الحكم. إزاء هذا الوضع المتأرجح هاجر الكثير من أدباء بغداد إلى الإمارات الأخرى وفيهم من وصل إلى افريقية.

والسبب الثاني: الضعف والتفكك الذي اجتاح الأندلس بعد عصورها الذهبية، والانقسام السرطاني في الإمارات الكثيرة مما جعل بعض الأدباء يعزفون عن الأندلس وينعتون أمراءها بالقطط التي تقلد الأسود أسماءوانتفاشا، وقد وجد هؤلاء الأدباء الاستقرار والقوة في الدولة الصنهاجية الفتية.

1) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص /104 لحسن حسني عبد الوهاب.

ونحن نؤمن بأن القوة السياسية يواكبها نضج فكري حضاريا وأدبيا، أو بالأحرى الثورة السياسية تصاحبها أو تمهد لها ثورة ثقافية . وإذا وقع خلل أو تنافر بين المقاييس السياسية والانبعاث الأدبي فيرجع .ذلك إلى العقم السياسي وتحجر قوالبه ذات النظرة الفوقية ويؤدي هذا التنافر بين السياسة والأدب الى تفكك المجتمع، وتعطل قواه الحية الخلاقة .

غير أن السياسة الصنهاجية لم تنزلق في هذا المنعطف الخطير، منعطف فصل الفكر الثقافي عن السياسي، فآخت بينهما . ولا ننس أن هذا العصر حلقة من حلقات التاريخ التونسي الطويل المليء بالأحداث والمفاجآت، بل والتقلبات التي تبدو أحيانا متشابكة غير مقنعة .

ولا شك أن هذا العصر يستند على أسس ثابتة من العصر الأغلبي والفاطمي التي تعد من عصور الإزدهار التونسي .
والعامل الاقوى في إزدهار الأدب التونسي أثناء العصر الصنهاجي يكمن في الأمراء انفسهم الذين امتازوا بالنضج، والإمكانيات العقلية، والمتانة الثقافية، والتشبع بالروح الوطنية التي تعتبر الأدب خير مقومات الأمة، وأصفى وجه لها . و كتب التاريخ تروي لنا الكثير عن المعز بن باديس وابنه تميم، وكانا من أنضج الحكام الذين تعاقبوا على هذا القطر، وهما بلا منازع أكبر امراء الخلية الصنهاجية .

كان المعز بن باديس كما يثبت ابن خلكان «محبا لأهل العلم، كثير العطاء. مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، حضرته محط الامال . . .» أما تميم فقد وصفه بأنه «محب للعلماء، معظم لأرباب الفضائل، حتى قصدته الشعراء من الافاق على بعد الدار، كابن السراج الصوري وانظاره. وكان يجيز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل (1).

وإذا افتقرت النهضة السياسية إلى انتعاش ثقافي فإن الوعي الثقافي والأدبي خاصة يحتاجان إلى صفاء ونضج في المقاييس النقدية. وبهذا نصل إلى العامل الرابع من عوامل ازدهار الأدب الصنهاجي انطلاقا من المبدأ السليم: النهضة الأدبية بلا نهضة نقدية عرجاء». واكب التفتح الأدبي نقاد اتخذوا المقاييس النقدية دليلا، بعد أن تسلط الذوق الشخصي على الأدب العربي عبر أحقابه التاريخية الطويلة، ومازلنا نعتز بكتاب «الممتع للنهشلي» و «العمدة لابن رشيق و «رسائل الإنتقاد لابن شرف» وكلها ألفت في هذا العصر.

ولربما يضاف إلى كل هذا وضوح المدارس الأدبية المشرقية والمغربية. وهكذا تظافرت العوامل الخارجية مع العوامل الداخلية لتجعل من العهد الصنهاجي عهد ازدهار أدبي وانبعاث ثقافي. في حراسة حس أدبي وعلمي نزيه، ورعاية أمراء جمعوا بين السياسة والأدب. فمن غير المستغرب أن يسمو هذا العصر أدبيا كما سما سياسيا، لانه يستند إلى جذور أصلية وثابتة.

---

1) (وفيات الاعيان لابن خلكان ص /122.

البيئة الخاصة وأسلوب حياته

تربي في قصور الملك بالمنصورية تربية خاصة كغيره من أبناء الأمراء الذين يولدون مع هالات الاستبشار والفرح. فهم الملوك الصغار، وساسة البلاد المنتظرون، يترعرعون في نعيم متنام لا ينضب، وسط التدليل والتطبيل، ويموتون مشيعين بآلاف الأعين والأذرع.

وفّر المعز بن باديس لابنه مناخا أدبيا وفكريا جمع فيه بين التعليم الخاص وحضور المجالس العامة والمنافرات الأدبية والعلمية التى يزخر بها بلاط هذا الأمير، وقد ضم إليه أدباء هذا العصر، وزرع بينهم الخصومات الأدبية، فكان يقرب هذا ليقصي ذاك، ثم ما يلبث أن يعيده، فيستميت الغالب والمغلوب في الظفر بحظوة الأمير، والاستحواذ على صلاته. وكان ابن رشيق وابن شرف فرسي الرهان يضاف إليهما أبو الحسن الحصري وابن أبي الرجال وغيرهم من أدباء العصر. ولكل هذا تأثير على تكوين الشاعر، وتأثر بما يدور حوله من التقليد إلى الاعجاب. ولما بلغ الثالثة والعشرين ولاه على المهدية، لكن الزحفة الهلالية المدمرة عصفت بملك الأب وحطمت القيروان عاصمته المحببة. وأظهر

المعز تساهلا في إدخال الاعراب واستقبال أعيانهم، ممّا مكنهم من تحطيم ملكه، وكان رأي تميم أن يجابههم المعز بالقوة، وان لا يظهر لهم اللين ويحتضنهم بحفاوة الاستقبال، فحدث بين الأب والابن - كما يقول الدكتور حسين مؤنس : «جفوة خفيفة (1)» غير أن المعز إلتجأ إلى ابنه السند الأخير بالمهدية بعد خراب القيروان سنة 444 هـ. فأكرم مثواه وإن لم يمكنه من مقاليد الحكم وهذا يثبت الرأي القائل بحدوث الجفوة بين الابن وأبيه ولربما انغرس في ذهن الشاب مزيج من الألم وقلة الثقة في قيادة الأب الشيخ، خاصة بعد الفشل الذي أظهره في حروبه مع الهلاليين، إذ تغلب عليه شذاذ الاعراب المرتزقة بـ30 ألفا وهو يعد ثمانين ألفا. ونزعة التملك التي تستحوذ على مشاعر الإنسان وتزين له حب السلطة، هي إلتي سممت العلاقة بين الابن وأبيه - على ما نعتقد - والاّ كيف نفسر هذا الاستياء المفتعل من الابن؟ ألا تكون خيوط الشك عملت مفعولها في ذهن تميم، فحذر من أبيه على إمارة المهدية وقد إستأثر بها كشاهد أخير يحكي مجد الأجداد، ويقبع داخل أسوارها ليحفظ ما تبقى من العائلة المالكة؟. ونحن نلجأ إلى هذا الاعتقاد مستندين على المصادر التي تشيله بسياسة المعز، فكيف يسخط الابن على سياسة فشلت مرة ونجحت مرات، وشهادة الاعداء خير دليل وأصدق حكم فى كل الظروف. فهذا علي ابن رزق الرياحي أحد الاعراب الذين غزوا إفريقية يسجل الوقائع في قصيد طويل :

---

1) هامش الحلة السيراء تحقيق الدكتور حسين مؤنس ص /22 .

الا طرقتنا من أميم خيـــــال وايدي المطـايا بالذميل عجال

ويشير إلى المعز بن باديس بكل إحترام وتقدير :

وأما ابن باديس لأحزم مالك ولكن لعمري ما لديه رجال

ثلاثة آلاف لنا غلبت لـــه ثمانين ألفا إن ذا لنكال (1)

كيف نفسر اعتراف العدو، وهل لنا أن ننزه نية الابن المنطوية على الحسرة والانخذال مع التمسك بالمهدية الاثر الباقي وعدم التفريط فيها حتى لولي نعمته ؟ المهم أن «تميم» عاش ازمة تأنيب الضمير، وتفاعلت في كيانه عملية الأبوة والواجب مع حب الملك والمصلحة الآنية، فلم يعنف الأب، ولم يمكنه في نفس الوقت من حقه الشرعي، وما أشبه هذا التصرف المأسوي في عملية الإزاحة التلقائية بانقلاب فنّي هيأت مسرحه الظروف وأملته نزوة الحكم فاشتدت المحنة على المعز المهزوم داخليا وخارجيا حتى توفى. » وبعد وفاة المعز صار تميم» أميرا حقيقيا فملك افريقية وما ولاها بعد أبيه وكان حسن السيرة محمود الأثار (2) ».

ونود أن ننقل فقرة طريفة كتبها المؤرخ ابن عذاري المراكشي في بيانه المغرب، وكان غربيا حقا في ما رواه عن حياة تميم الخاصة وتصرفاته العجيبة في نظام عيشه : «كان جميلا وسيما، مديد القامة، دري اللون، أشم أبلج ، وكان يكثر من استفراغ بدنه، ويرى بذلك تتمة صحته، فيستعمل كل حار

---

1) الحلل السندسية في الأخبار التونسية القسم الرابع ص 945 ـ للوزير السراج

2) البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ص /437 .

من الأدويــة والأغــذية ، ويكثــر من الاصطــلاء بالنار، ويدخل الحمام الحار ، ويكثر الجماع وشرب الأدوية المقوية كالمحمودة وغيرها، ويجاوز في ذلك المقدار، حتى جف لحمه وفســدت حركاته الطبيعيــة واقعد ثم مــات سنة 501هـ فكان عمره 79 عاما وولايته من يوم وفاة أبيه 46 سنة وخلف من الأولاد الذكور ما جاوز عددهم المائة (1)».

ورغم النزعة الاسطورية التي تسيطر على بعض الجوانب في هذه الفقرة ، فإننا نريد أن نسلط عليها بعض الاضواء، علّها تسهم في الالمام بشخصية الشاعر الخفية .. فنحن لا نرفض هذه الاخبار من الأساس. بل نحاول تعليل التصرفات، وقد وجدنا في «المؤنس» إشارة إلى هذه الأخبار، غير ان ابن أبي دينار لم يورط نفسه بروايتها تحاشيا للمبالغة، أما نحن فلم نلاحظ اختلافا كبيرا بين مزاج الشاعر وهذه التربية الالزامية التي حاول ترويض نفسه بها.

1 ــ ان هذا الأسلوب القاسي الذي ارتأه «تميم» ما هو إلا عملية رد فعل للنعمة والبذخ الغارق فيهما، ولعلها ردة نفسية بعد أن شعر بواقع بلاده الذي يتطلب الحزم والعزم، ولربما أعطته زحفة الهلاليين درسا عمليا، فاثبتت له أن النعمة لا تدوم. ونمط الحياة الجديدة محاولة لسبر النفس، وحملها على المكاره التي تترصد الأمراء والملوك وهذا الأسلوب طالما عود

1) نفس المرجع .

الملوك أبناءهم عليه كنوع من التربية الاسبرطية تحسبا للطوارىء وتقلبات الملك فنزعات القسوة لا يخلو منها عصر مهما كان استقراره، وشبحها يخيف كل أمير.

2 – يثبت هذا الاتجاه في التربية والتداوي ميل «تميم» لأسلوب حياة العوام الذين يزعمون أن الدواء الكريه يزيل الداء المتمكن، وينفرون تبعا لهذا من كل دواءمستساغ حلو الطعم، لخلوه من حصانة العنف المكتسح لكل داء مستوطن

3 – استفراغ الشاعر لبدنه القوي المكتنز واستهلاكه لقواه صفة امتاز بها حتى في محاربته الاعداء المتكالبين على ملكه ففي الموسوعة الاسلامية :«أن تميما أظهر مقدرة عجيبة في الأوقات العصيبة التي كانت تحيط به عند إعتلائه العرش، وتجهز في المهدية التي بقيت له من كل املاكه لاستعادة مدن افريقية بعد أن استقل بها ولاتها ...(1)»

وتظافرت الأزمات على الشاعر الأمير : » ففي أيامه كانت المجاعة الكبرى بافريقية، والوباء الذي لم يسمع بمثله (484هـ)، وقد قضى أغلب أوقاته مقاوما فيها الثورات التي كانت من بني عمه ومن العرب (2)». اذاً فقد اظهرت هذه التربية جدواها، وأتت أكلها إبّان الحاجة . هذه بعض الملامح عن شخصية الشاعر الأمير ونظام حياته، فما هو إنعكاس هذه الحياة في شعره...؟

1) الموسوعة الاسلامية مادة تميم ص 437 .

2) المؤنس في أخبار افريقيا وتونس لابن أبي دينار ص /85 .

الشعر وحياة القصر

كانت المنابع الثرة لشعر تميم بعيدة عن جو السياسة والحكم وأبهة الملك، وقريبة من الحياة الناعمة الدافئة، وسط ثراء القصور وبهارج الحضارة، هذه هي السمة البارزة لشعره شعر ارسطقراطي مترف في أشكاله ومعانيه، لا ينمو إلا في ظلال القصور واكناف حدائقه الخضر، مع الحان القيان وزخات الخمر وأصوات الجواري. فالشاعر ابن بار لبيئته الخاصة، وشعره صدى لعيشته المنعمة.

الخمر و الغزل خطان متكاملان لفن الشاعر طغيا على بقية أغراضه . وما ذا غير اللهو والحب لأمير مترف اجتمعت لديه كل وسائل الدعة والرفاه مع الشباب المتمرد . ولعل هذا المفهوم للشعر من ألصق المفاهيم بحياة الشاعر، خلجات نفسانية تدغدغ كيانه العابث المنطلق وراء المتعة . وماذا ننتظر من شاعر أمير؟ أننتظر صدى الكادحين وانات الضعفاء، أم صرخات الفقر والتسول؟ هذا هو مضمون شعر الشاعر، أما شكله فلم يكن أقل رقة من ضحكات جواريه، وهمسات أوتار عيدانه، ولون خمرته في لياليه الصاخبة، وخمريات تميم تذكرنا بخمريات أبي نواس، بل تكاد تكون صورة مصغرة من هاته الخمريات، عشق الخمرة وأحبها فوصف جزئياتها، وتفنن بمجالسها . أحبها كالنواسي حباً ماديا لا صوفية فيه، ولا روحية ولا مواربة أو تستر، انه الأمير الشاعر الآمر الناهي:

لا أبالي اذا شربت ثـلاثـا   أي قاض بالجور يقضي عليا(1)

فلسفة الشاعر واضحة : المادية البحتة ، والتمتع بما وفر الله ، وأفاء عليه ، فالعيش عنده كما هو عند النواسي ، خمرة وقيان ، ودندنة أوتار :

قـم يا نديمي ها تهـا   حمراء ترمي بالشـرر (2)
ما العيش الا بالسـلام   وبالقيـان وبالوتـر

وإذا عزف النواسي على الوقوف بالاطلال، و وصف النساء ، وجعل صفاته لابنة الكرم، فان عيش تميم قصره على المدام ، وأصوات الجواري والقيان التي تؤلف مجموعة صوتية متجانسة مع بعضها ، تضيء الليل وتقصر أبعاده المملة :

ما العيش الا مع التهجيد والدلج   أو المدام وصوت الطائر الهزج(3)
والشرب بين الغواني والقيان معا   فان أوجهها تغني عن السرج

والخمرة لا تلذ الا من يد جارية قال فيها النواسي :

تسقيك من طرفها خمرا ومن يدها خمرا فمالك من سكر ين من بد

وقال فيها تميم :

وكأساً مثل عين الديك صرفا   وماء المزن بالشهد الجني (4).
يطـوف بهـا مليـح ذو دلال   مـريض الطرف ذو خلق رضي
شربت على مدامعه مـدامـا   كمـاء المزن و المسك الزكي

1) خريدة القصر وجريدة العصر للاصفهاني /186 .
2) نفس المرجع ص /187 .
3) خريدة القصر وجريدة العصر للاصفهاني ص /170 .
4) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ص /186 .

والمرأة نوع من الخمرة عند الشاعر ، بل صنف جيد منها، كل شيء فيها يذكره بالقدح وأنفاس الـدن . وتتضح مادية الشاعر في التهالك على اللذة والاكثار من استفراغ جسمه بالمعاشرة والجماع (1) كما روي ابن عذارى المراكشي .
وكثيرا ما تتساوى الخمرة والمرأة، فيعيش الشاعر وسط شطحات شهوانية لا يميز فيها بينهما ، كل له مغنطيس خاص وجاذبية متميزة ، وكلاهما في حاجة إلى الآخر ، لذلك احتار الشاعر في أيهما المسوغ لصاحبه :

وخمر قد شربت على وجوه   اذا وصفت تجل عن القياس
خدود مثل ورد في ثغور   كدر في شعور مثل آس

إنها الشهوة العارمة ، والتكالب على المادة واللذة المزدوجة التي يملكها ولا يعرف مصدرها الحقيقي، أهي المرأة أم الخمرة، أم تكاملهما الدائم :

وأسقيه من كأسي واشرب فضله   فينهل من فيه ومن فيه أمزج
هو الخمر الا أنه خمر مرشف   يمج به الثغر النقي المفلج

وقل ان نجد قصيدة غزلية لا تقرن بالخمرة، ومن هنا تظهر لنا حياة الشاعر الخاصة ، حياة القصر بمتعه وعيشه، حياة حاول سترها عن شعبه ففضحه احساسه الشعري .

اختار تميم الأنماط المحببة في الشعر التي تداعب الوجدان وتفجر الشهوة ، وقلل من الفخر والحروب والغزوات ، لان

1) البيان المغرب لابن عذارى ص /347 .

الأمير الشاب يقدم على هذه المعارك كارها، ويخرج منها حامدا الله على السلامة، فكيف يستعيد ذكرياتها الدامية؟ لذلك لا تروى له الا مقطوعات متفرقة في الفخر والحروب لا قيمة لها فنيا. لعل هذا يرهق مزاج الشاعر الملكي المدلل رغم ما اشتهر به من قسوة وسرعة في قمع الثورات، ودراية في مسك مقاليد الحكم التي تداعت في عهد أبيه بالزحف الهلالي المدمر، ولولا المهدية التي اعتصم بها الشاعر لذهب ملك بني زيري، وانزاح عهد الصنهاجيين في تلك الفترة الحرجة من تاريخهم.

والمنتخبات التونسية – أو مجمل تاريخ الأدب التونسي – تروي للشاعر مقطوعات سياسية هادفة، أما بقية المجاميع فتكاد تهمل هذه الناحية، وتقتصر على الالوان التي ظهرت فيها براعة الشاعر. والالتقاء بين الشاعر وأبي نواس ليس من باب الصدفة أو العفوية التلقائية، بل يظهر لنا انه مدروس ومقصود، فالأمير يعجب بنزعة النواسي.. يعجب بخمرياته التي تجمع إلى الزندقة المحرجة خفة الروح، مما جعله يتغاضى عن هنات أبي نواس، ويغفر له تمرده الدائب ضد الدين والتقاليد لظروف حياته المتعبة، ولأسلوب تربيته الذي لا دخل له فيه، فكانت خمريات أبي نواس مثالا أمام الشاعر يقرأ ويتأثر به، ولربما مر بفترة المحاكاة والتقليد، قبل أن يصل إلى ذلك النضج وجودة الإستيعاب.

وقد ختم أبو نواس حياته اللاهية بتوبة و ورع بعد وصوله سن الشيخوخة وقعوده عن مسارح اللهو، لا لعفة في نفسه التي

ما زالت جائعة لاهفة ، لكن لنذير الموت والخوف من عذاب الآخرة فتوجه إلى ربه السند الأخير بهذا الدعاء الذكي الذي لا يتضرع فيه بقدر ما يحتج :

يا رب ان عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
ان كان لا يرجوك إلاَّ محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

هذه حالة أبي نواس في سنواته الأخيرة : ضعف وشيخوخة ويأس ورجوع إلى الله ، لا لاظهار المسكنة ، بل لطلب نصيبه من الغفران ، اشارة إلى نظرية الجبر والاختيار .

أما تميم بن المعز فقد وصل إلى سن السبعين وهي سن اليأس والتقوقع والانكماش ، وأوهنه المَرض كما روى ابن عذارى حيث أصيب بجفاف الأعضاء واستهلاك البدن ، فرجع إلى ربه رجعة أبي نواس كأنه أراد تقليده حتى في التوبة وطلب العفو والغفران ، بل وفي التفعيلة والبحر . إذا كان عذر أبي نواس ان الله مجبر على العفو لان العبد الضعيف لا يملك حتى افعاله ولا ملاذ له الا الله ، فان «تميم» يتمسك بالشهادتين كأنه يشير إلى قول الرسول «ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك . . . فكأن الشهادتين هما جواز المرور للجنة ، وصك الغفران :

فكرت في نار الجحيم وحرها يـا ويلتاه ولات حين مناص
فدعوت ربي ان خير وسيلتـي يوم المعـاد شهادة الاخلاص

البناء الفني

من المؤسف ان لا نطلع للشاعر على قصائد شاملة حتى نناقش بناءه كما حاول صياغته . وكل الذي بين أيدينا مقطوعات قد تطول وقد تقصر إختارها مؤرخو الأدب القدامى . أما الديوان فلم نعثر عليه ولعله لم يطبع إن لم يكن مفقودا، غير أن ابن عذارى يؤكد كبر حجم الديوان وشهرته ناعتا الشاعر بأنه « أحد فحول الشعراء الملوك من ذوي السبق في معانيه وبدائعه حوى فيه الجودة والكثرة ، وله ديوان شعر مشهور (1) » . واناقة الشاعر قد لا تظهر في لباسه الملكي الثمين فقط، بل تظهر حتى في شعره ، وهي أبقى وأخلد . فتميم أنيق العبارات ، يحسن الانتقاء، ويمرر كلمات شعره على حاسته الفنية الجيدة . فشعوره بالكلمات هو الذي أضفى على شعره هذا الرونق الخاص الذي لا نجده في عصره : انتقاء الموسيقى، وحضرية المعاني . وأول ظاهرة في شعره تركيزه الواضح على بحور خفيفة اشتهرت بموسيقاها الهادئة في الشعر العربي ، وشغف بها شعراء الفترة العباسية باعتبارها لونا من التجديد، لان القدامى لم يحفلوا بها كثيرا : كالمجزوءات ،

1) البيان المغرب لابن عذارى ص /436 .

والمشطور وبحور الكامل والمتقارب وقد امتازت بتكرار التفعيلة وتجانسها، مما حببها لدى الشعراء وقربها من الأذان الموسيقيّة

ولا شك أن «تميم» اختار هاته البحور لسهولة أدائها لدى الغناء، وهو المغرم بالغناء والموسيقى وأصوات القيان التي تعج بها قصوره.

ولحرص الشاعر على الموسيقى لا يكتفي بالقوافي العادية وإنما يعمد إلى القوافي الوسطية، فلكل تفعيلتين قافية موحدة وهذا النوع من البراعة البديعية سماه الاقدمون ترصيعا، وهو يشبه السجع النثري، غير أنه يصاحب الشعر فقط :

بنبل الجفــون وسحر العيون ... وميل الغصون كميل الرماح(1)
ولمع الثغور وبيض النحــــور ... وضيق الخصور وجول الوشاح
وورد الخدود وميس القــــدود ... وضم النهود ولثـم الاقـاح
وكأس المدام غداة الغمــــام ... يلـف الغمـام فراح بـراح

وقصـائد الشاعر تعد انموذجا للترصيع في العصر الصنهاجي ويظهر تميم صناعا صائد بديع يحفل باللفظ أكثر منه بالمعنى وقصائده معرض للزخارف البلاغية، وكأننا بالشاعر حرص على التزويق الشكلي ولم ينتبه للمعنى، وعد الأبيات الشعرية معروضات يزدان بها قصره، وقد سبب له هذا ارتباكا وغموضا في المعنى، بل وتكلفا أحيانا، كما يظهر في الأبيات السابقة في «يلف الغمام» لا معنى لها في البيت . و «جول الوشاح» حشو فرضته القافية، والكناية التي تذوقها الشاعر أكثر من المرأة.

1) الخريدة للاصفهاني ص /170 .

وقد يلجأ الشاعر إلى الغريب جريا وراء القافية متناسيا المعنى :

كان الرحيق بكن العشيــــق نظام العقيق بجيد الــــرداح

والرداح المرأة الثقيلة الأوراك، والكلمة ظاهرة التكلف وكيف يتأتى وجود امرأة يجول وشاحها خفة ورشاقة وهي مع ذلك ثقيلة الأوراك .

ومن عشق الشاعر للتشابيه نلاحظ العنت المزرى في اقتناصه حتى وصل به أحيانا إلى التعسف والتعنت وقلة الذوق، من ذلك تشبيه الريحان والزهور المفتحة برأس الراهبة الشمطــاء، وليتها كانت راهبة . فقد اختار أقبح تشبيه وأبعده على صفاء الذوق، فنحن نشعر بهيبة الدين ووقاره في موضع غير مناسب ونشعر إلى جانب هذا برأس اشمط لا ندري ماذا يوحي للإنسان؟ .

ومجلس فيه ريحان وفاكهــة تظل تلهو به حينا وتغتبط (1)

كأن سوسنه المبيض حين بــدا رأس لراهبــة يبدو بها الشمط

وفرص الشاعر تبدو أحيانا محدودة في اختيار الجيد من التشابيه يكدسها بلا روية، ويجري وراءها كأنها كشف كبير :

وخمر قد شربت على وجــــوه إذا وضعت تجــل عن القياس

خــدود مثل ورد في ثغـــور كــدر في شعــور مثــل آس،

فالمقطع «كــدرّ في شعور مثل آس» صورة محشورة بقسوة وسط السبيل الدافق من التصنع، لا علاقة لهذا التشبيه بالصورة

---

1) الخريدة للاصفهاني ص /170 .

الأولى التي تمثل الخمرة في أفخر مجالسها، ووجوه النساء في أبهج زينتها. وإذا سلمنا باحمرار الدر فماذا يمثل الشعر بالنسبة للصورة الأولى؟ تشبيه كل هذا بالآس والريحان لا يخلو من التكلف، لم يراع الشاعر فيه إلا حاسة البريق اللفظي الذي أغراه بالانزلاق وسط هذا الإهمال المعنوي، حاول اصطياد المحسنات لكنها صادته وجعلته عبدا يركع تحت قدميها. ولا نستغرب من تميم هذا الميل إلى الزينة اللفظية وهو الأمير الأنيق الذي يحاول تزيين ذهنه بالصور الفنية كما زين قصره بأنواع المتع، إنها الأناقة وحب الجيد.

ولا ننس ذوق العصر الذي كان ينحدر نحو الاعتصام بالقواقع البلاغية في الشرق والغرب: نشأت المقامات والرسائل، وغالى الأدباء في ميولهم البديعية التي أزرت بالأدب العربي، وكانت جناية على الأدب، ومهد زعماء التصنيع والتكلف لهذا العصر من بديع الزمان الهمذاني والخوارزمي، إلى الصاحب بن عباد وابن العميد، فكانوا ارهاصا صادقا لعصر الصنعة الممجوجة، والتكلف الضيق، المحشور في قوالب الالفاظ، وفي عصر تميم نشأت المقامة الحريرية والطريقة الفاضلية في مصر، أنشأها القاضي الفاضل وقد «عنى بأنواع البديع عناية عظيمة وألح على التورية والجناس فوقع في الغموض وتعقد انشاؤه ووافق ظهور طريقته جمودا في الافكار وحدا من الانطلاق الأدبي (1).

1) أدباء العرب في الاعصر العباسية بطرس البستاني ص /425.

غير أن «تميم» لم ينحدر إلى هذا الوحل، لأن شاعريته أبت أن تتضرع فكان شعره ـ رغم الصنعة المبالغ فيها أحيانا ـ ظاهرة جميلة أنيقة الألفاظ مختارة الصور، وهي قريبة من ذوق الشاعر وإحساسه، قريبة من القراء على اختلاف مشاربهم وأهوائهم .

المراجع

1 ــ وفيات الأعيان ... ابن خلكان
2 ــ هامش الحلة السيراء ... تحقيق حسين مؤنس
3 ــ الحلل السندسية في الاخبار التونسية ... الوزير السراج
4 ــ البيان المغرب ... ابن عذارى
5 ــ المؤنس في أخبار افريقية وتونس ... ابن أبي دينار
6 ــ خريدة القصر وجريدة العصر ... العماد الاصفهاني
7 ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ... ابن بسام
8 ــ زهر الآداب وثمر الألباب ... ابراهيم الحصري
9 ــ أدباء العرب في الاعصر العباسية ... بطرس البستاني
10 ــ مجمل تاريخ الأدب التونسي ... ح. ح. عبد الوهاب
11 ــ الموسوعة الاسلامية ..

منتخبات

الخمريات

بنبل الجفون

بِنَبْلِ الجفون، وسحر العيون ... ومَيْلِ الغصون، كمثل الرّماح
ولَمْعِ الثغور، وبيض النُّحور ... وضيق الخصور، وجوْلِ الوِشَاح
وورد الخدود، ومَيْسِ القُدُود ... وضمّ النهود، ولثم الأَقاح
وكأس المدام، غداةَ الغَمام ... بكفِّ الغلام، فراحٌ براح
كأنَّ الرحيق بكفِّ العشيق ... نظام العقيق، بجيد الرّداح
على المستهام، خايف الغرام ... فما في السلام، له من جُناح

* * *

وقوله من خمرية أخرى :

لله ليلتُنَا ونحن نُديرهَا ... كأسا معتّقة من الخُرطوم
والطبْل يخفق والمزَامِرُ حوله ... تتخالف العِيدَانُ فِي المزْمُوم (1)
فلئن صبوْتُ فقد صبا أهل النُّهَى ... ولئن هفَوْتُ فلستُ بالمعصوم

* * *

(1) المزموم : مقام من المقامات الموسيقية بالبلاد المغرَبية ، وفي عرف أهل المشرق هو نوع من الجَاهركة .

وقال أيضـــا :

اسقِياني فلست أصْغي لِعذْلِ ليس إلاَّ تعلَّةَ النفس شُغلـي
أأطيع العذول في تركِ ما أهوى كأني اتهمت رأيي وعقلـي
علّلاني بها فقد أقبل الليـــل كلونِ الصدود من بعد وصْل
وانجلى الغيمُ بعدما أضحك الرَّوْ ض بكاء السحاب جادَ بِوبْلِ
عن هلال كصولجان نضـــار في سماء كأنها جامُ ذبْـــلِ

* * *

وقال أيضـــا :

رُبَّ صفراء علَّلَتْنِي بصفرا ء وجُنْحِ الظَّلاَمِ مُرخي الإزَارِ
بين مـاء وروضة وكـروم وروابٍ منيفـة وصحـــار
تتثنّى بــه الغصون علينـــا وتجيبُ القيانُ فيها القَمارِي
وكأنَّ الدُّجى غدائــرُ شعــــر وكـأن النجوم فيها مـدَارِي
وانْجلَى الغَيْمُ عن هلال تبدَّى في يد الأُفق مثل نصف سِوار

* * *

وقال أيضـــا :

وزنجية الأَباء كَرْخِيَّة الجلب عنَّابية الانفاس كَرْمِيَّة النَّسب
كُمَيْت بَزَلْنَا دَنَّهَا فَتَفَجَّرَتْ بأحْمَرٍ قَانٍ مثل ما قَطَرَ الذَّهَبْ
فلمَّا شربناهـــا صبوْنَـــا كَأَنَّنَـــــــا
شربنا السرور المحْضَ واللهو والطَّـربْ

ولم نأت شيئا يسخط المجْدَ فِعْلُـــــهُ
سوى أنّنا بِعْنَا ٱلْوقَار مِـن اللَّعِـــبْ
كأن كؤوس الشرب وهيِ دوائر   قطائِعُ ماءٍ جامد تحمل اللّهَبْ
يمدُّ بها كفًّا خضيبا مديرهـا   وليس بشيءٍ غيرها هو مختضِبْ
فبتنا نُسقى الشمس والليل راكد   ونقرب من بدر السماء وماقرب
وقد حجب الغيمُ الهلال كأنه   ستارة شَرْب خلفها وجه مَن أحب
كأن الثريّا تحت حلكة لونهـــــا
مداهــن بلّور على الأَرض تضطـــرب

* * *

وقـــال :

كأن السحاب الغرّ أصبحنَ أكـــــؤســا
لنــا وكأنَّ الرَّاح فيها سنَا ٱلْبــــرْقِ
إلى أن رأيــت النجمَ وهو مغــــــرّب
وأقبــل رايــاتُ الصباح من الشـــرق
كأنَّ سواد الليل والصبح طالـــــع
بقــايا مجــال الكحْل فيِ الأَعين الزُّرْق

* * *

وقـــال :

ألا فاسقيــانــي قهــوة ذهبيــــــة
فقـــد ألبس الآفاق جنح الدُّجى دعــج

كأنَّ الثريا والظلام يحفهَا
فصوص لُجيْنٍ قد أحاط بها سبجْ
كأن نجوم الليل تحت سواده
إذا جنَّ زنجي تَبسَّم عن فلجْ

* * *

عتبت فانثنى عليها العتاب

عتبت فانثنى عليها العتـــاب ودعا دَمْع مقلتيها انسكَـابُ
وضعت نحو خدِّها بيديهـــا فالتقى الياسمين والْعُنَّـابُ
رُبَّ مُبْدِي تَعتُّب جعل العتب رِياءً وهمّـه الإعْتَـــابُ
فاسقنيها مدامة تَصْبغ الكــأ س كما يصبُغ الخدودَ ٱلشّباب
مـــا ترى الليل ! كيف رقَّ دُجـــاهُ
وَبـــدا طيلســـانه ينْجـــــــاب
وكأنَّ الصباح فِي الأُفق بـازٍ والدُّجى بين مِخْلَبيْـهِ غراب
وكأن السماء لُجَّـة بحـــر وكأنَّ النجوم فيهـا حبـاب
وكأن الجوزاء سيف صقيـل وكأنَّ الدُّجى عليها قِـــراب

* * *

وقـال أيضـا :

نَقّبتْ وجهها بِخَزٍّ وجـــاءتْ بمُدَام منقّب بـزجـــاج
فتأمّلت في النقابيـن منهـــا قمرا طـالعا وضوء سِـراج
فاسقيـانِي بلا مِزَاج فانــــي في المعالي صِرْفٌ بغير مزاج(1)
وانظر الأُفق كيف بدّله الإصْـ بـاحُ من بعْدِ أبنوس بعـاج

(1) مزاج الشراب : ما يمزج به

الغزل

ورد الخدود

ورد الخدود أَرقُّ مـــن ورد الـريـاض وأَنْعـمُ
هـذا تنشّقـه الأُنــو فُ وذا يقبّلــه الفَـمُ
وإذا عدَلْتَ فـأفضـل الْـ وردَيْنِ ورد يُلْثَـمُ
لا ورْدَ إلاَّ مـا تـولَّـي صبْـغَ حمـرته الـدَّمُ
هـذا يُشَـمُّ ولا يُضَـمُّ وذا يُضَـمُّ ويُشمـمُ
سبحـان من خلـق الخـدو دَ شَقَـائِقَـا تُتَنَسَّـمُ
وأعـارها الاصـداغ فَـهْـيَ بِها شقيـق يُعْلَـمُ
واستنطَـقَ الاجفـانَ فهـي بلحظهـا تتكلَّـمُ
وتُبِيـنُ للمحبـوب عن سـرّ الحبيـب فَيفْهَـمُ
وتشيـر ان رأت الـرَّقيـب بلحظهـا فَيُسلَّـمُ
وأعـارهـا مرضا تَصِـح بـه القلـوبُ وتَسْقَـمُ
فِتَـنُ العُيُونِ أَجـلُّ مـن فِتَـنِ الخـدود وأعظَـمُ

* * *

وقـال :

إن كانت الألْحاظُ رُسْلَ الْقُلُوب فينـا فما أهْونَ كَيْدَ الرَّقِيب
قَبَّلْتُ من أهوى بعيني ولـم يعلـمْ بتقبيلي خدَّ الحبيبْ
لكنّه قد فَطِنَتْ عينُــهُ بِلَحْـظِ عيني فِطْنَةَ المستريب
ان كان علـم الغيب مستخفيا عنَّا فعند اللَّحظ علمُ الغيوب

عقرب الصدغ...

عقرب الصُّدغ فوق تفَّاحة الْخَـ ـدِّ نَعِيـمٌ مطَـرز بعــذاب
وسيوف اللحاظ فيِ كل حين مانعــاتٌ جنَى الثنايا العذاب
وعيون الوشاة يُفْسدن بالرّقْـ ـبةِ والمنْـع رؤيــة الأَحباب
فمتى يشْتَفِيِ المحبّ وتُطْفَـى بالتَدَانــيِ حرارة الإكتئــاب

* * *

أأعذل قلبي

أأعذل قلبيِ وهوليِ عـــاذل
وأعصـــيِ غراميِ وهو ما بين أضلعـــيِ
ومن لــيِ بصبر أستزيل به الجـــوى
ولا جلــديِ طوعيِ ولا كبديِ معِـــيِ
فأوّل شــوقيِ كان آخَر سلْوتـــيِ
وآخـر صبـريِ كـان أول أدمـــعيِ

ترى عذاريه قد قاما بمعذرتي

ترى عِذَاريه قد قاما بمعذرتــي عند العذُول فيغدُو وهو يعذرني

رِيمٌ كأنَّ له في كلِّ جارحــــــة
عقـــدا من الحُسن أو نوعا من الفتـــن

كأنَّ جوهره من لطفه عــرضٌ فليس تَحْويه إلا أعيُنُ الفطن

أخفى من السرّ لكن حُسنُ صـــورته
إذا تأمّلتــه أَبْدَى من العلَـــــن

والله مــا فَتَنَــتْ عيني محاسنُــــه
إلا وقد سَحَرتْ ألفــاظــه أذنـــــي

مــا تصدُرُ العين عنــه لحظَها ملَـــلاً
لأنَّــهُ كُلّ شَخْص مرتضًى حســـن

يا منتهى أملي لا تُدْنِ لِي أَجلـــي
ولا تعــذِّبْ ظنوني فيك بالظِّنَـــنِ

ان كان وجهك وجها صِيغَ من قمـــرٍ
فــإنَّ قَدَّكَ قَــدٌّ قُدَّ مــن غُصُـــنِ

* * *

ألا يا نسيم الريح

ألا يا نسيم الرّيح عـرّج مسلّمـا
على ذلك الشخص البعيد المـودّع
وهُبَّ على من شَفَّ جسمي بعـادُهُ
سمُـومًا بما استَملَيْتَ من نار أضلعي (1)
فان قال ما هذا الحَرُورُ فقـل لـه :
تَنَفُّسُ مشتـاقٍ بحبّك مُـوجَـعِ (2)

* * *

قالوا الرحيل لخمسة

قـالـوا الرَّحيل لخمـسـة	تأتي سريعا من جمـادى
فـأجبْتهـم أنِّـي اتَّخـذْ	تُ لَـهُ الأَسـى والحزنَ زادا
سبحـان من قسم الأَسـى	بين الأَحبَّـة والبعـادا
وأعـار للأَجفـان حسنـا	تستـرِقُّ بـه العبـادا

(1) السموم : الريح الحارة تكون غالبا بالنهار

(2) الحرور : الريح الحارة بالليل

اغراض اخرى

شكوى الزمان

وذي عجب من طول صبري على الـذي
ألاَقِـي من الارزاء وهو جليـــــــلُ
يقـولون ما تشكو فقلت متى شكـــا
شبـا السيف عضب الشفرتين صقيـل
وانْ امـرءًا يشكو إلى غير نـافــــع
ويسخـو بما في نفسه لجهـــــول
عذابي أن أشكو إلى الناس انني
عليلٌ ومن أشكو إليـه عليــــــل
سـأسكت صبرا واحتسابا فإننـــي
أرى الصبر سيْفًـا ليس فيه فلـــول

* * *

تقلب الدهر

يــا دهر ما أقساك من متلـــــــــوِّنِ
في حالَتَيْـك ومــا أقلَّكَ منصفَــــا
أتروح للنكس الجهــول ممهَّـــــدا
وعــلى اللبيــب الحــرّ سيْفا مرهفـــا
وإذا صفوتَ كدرت شيمةَ بــاخــــل
وإذا وفيــت نقضتَ أسباب الــوفـــا
لا أرتضيــك وإن كرمتَ لأنَّنـــــي
أدري بأنك لا تدوم على الصفـــــا
زمــن إذا أعطــى استردَّ عطـــــاءه
وإذا استقام بـــدالــــه فتحـــرّفـا
مــا قام خيرك يا زمان بشـــــرّه
أوْلَى بنا ما قلَّ منك ومـــا كَفَـــى

* * *

وصف منافق حاذق

رأيتك قاعدا عن كلِّ خيرٍ
وأنت الشهمُ في قالوا وقلتُ

وأطوار لها لطف وحذق
وألفاظ تنمّقها وسمت (1)

وثقتُ إليه من حسبٍ وبيتٍ
ولولا ذاك منه لما وثقت

وقد يعِدُ الوعودَ وليس يوفي
وليس بقائِلٍ يوما فعلت

كخزِّ الماء فوق الماء طافٍ
يروق وماله أصلٌ ونبت

كذلك زهرة الدِّفْلَى تراها
تشوق العينَ حسنا وهي سُحْت (2)

* * *

(1) تنمقها : تحسنها وتزينها
2) سحت : خبث

متى كانت دماؤكم تطلّ

متى كانت دماؤكم تطلُّ ... أما فيكم بثار مستقلُّ
أغانم ثمّ سالم أن فشلتم ... فما كانت أوائلكم تذلُّ
ونمتم عن طلاب المجد حتى ... كأنَّ العزَّ فيكم مضمحلُّ
وما كسّرتم فيه العوالي ... ولا بيض تفلُّ ولا تُسلُّ(1)

* * *

بكر الخيل دامية النحور

بكرّ الخيل دامية النحور ... وقرع الهام بالقضب الذكور(2)
لاقتحمنها حربا عوانا ... يشيب لهولها رأس الصغير
فإمّا المُلْك في شرف وعزٍّ ... عليَّ التاج في أعلى السرير
وأمّا الموت بين ظبى العوالي ... فلست بخالد أبد الدّهور

---

1) العوالي : الرماح

2) الهام : الرؤوس
القضب : السيوف

مـا اختلف الصبح والمسـاءُ   وأنْفِـذَ الحُكمُ والقَضَـاء
ألاَ ولله فيـه سـرّ   يحكم في الخلق ما يشاءُ

* * *

وقال حين حضرته الوفاة:

فكَّرْت في نار الجحيم وحرّها   يا ويلتاه ولات حين منـاص
فدعوت ربي ان خير وسيلتي   يـوم المعاد شهادة الاخلاص

* * *

أبو القاسم الفزاري

الأرضيّة الحضاريّة لعصر أبي القاسم الفزاري

1 ـ الصراع المذهبي والسياسي

في المجتمع الافرقي ذي الصبغة الاسلامية ، كانت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، ثلاثة مذاهب اسلامية تتصارع : الشيعة ، والسنة ، والخوارج .

أ ـ الشيعة:

الشيعة في الأصل حزب سياسي يطالب بارجاع الخلافة إلى علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت الرسول (ص) . وبما أن فاطمة هي الوارثة الوحيدة لأبيها فقد كان من الطبيعي أن يتشبث زعماء هذا المذهب بهذه القرابة وهذه الوراثة فلذلك قالوا انهم هم الفاطميون . وفضلوا هذا الاسم على العلويين أو الطالبيين أو الشيعة ، بصفة عامة فيقول ابن هانيء .

أبناء فاطم هل لنا في حشرنا لجأ سواكم عاصم ومجار ؟
أنتم أحباء الاله وآله خلفاؤه في أرضه الأبرار

أهل النبـوّة والرسالة والهدى في البيّنات وسادة أطهار (1)

في حين يرى السنيون أن الأنبياء لا يورثون ، فما يخلفونه يوزع على المجموعة هبة وصدقة . وبالتالي فلا حق لعلي في خلافة الرسول السياسية على الأمة الاسلامية. وإنما يبايع الخليفة من بين الصحابة قاطبة ، وعلى هذا الأساس تم انتخاب أبي بكر ثم عمر ثم عثمان فعلي قبل أن ينتهي الامر الى ملوكية وراثية على يد بني أميّة .

على أن الحركة الشيعية ــ رغم ما ألحق بها من تعسف واضطهاد ــ ظلت طيلة القرون الثلاثة الأولى ، تواصل دعايتها ، علانية تارة وسريّا طورا آخر . وكانت أول ثورة ناجحة يقومون بها هي ثورة الداعي أبي عبد الله في قبائل (كتامة) فأطاح بالحكم الأغلبي في معركة (الأربس) سنة 296 هـ 909م ومهّد لمولاه «عبيد الله المهدي » الذي انتقل سرا من «سلمية» في جنوب حمص مركز الدعوة بالشام إلى سجلماسة بأقصى جنوب المغرب (2) .

وبذلك قامت الدولة العبيدية الشيعية ، وانتصب عبيد الله المهدي برقادة سنة 297 هـ 990م ، فدامت به إلى سنة 362 هـ 973م وهو تاريخ انتقال المعز رابع الخلفاء الفاطميين إلى القاهرة . إلاّ أنه ينبغي أن نشير إلى أن ظهور العبيديين كان يعني ظهور عامل جديد في حياة افريقية وفي تأكيد الصراع الذي كان يهزها من جميع الأطراف فأهل افريقية مالكية خلّص اعتنقوا

---

1) ديوان ابن هانيء ص 365 ــ 378

2) صبح الأعشى للقلقشندي .

المذهب المالكي وتعصبوا له وأخذوا ينظرون إليه وكأنه جزء من قوميتهم ، والعبيديون شيعة همّهم التمكن والقضاء على المناهضين . من هنا كان على أرض افريقية أن تواجه صراعا حادا بين الشعب وحكّامه . (1)

ب – السنة :

السنة لغة تعني الطريقة أو المنهج ، وهي اصطلاحا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله – غير أن اللفظة اكتسبت على مرّ الزمان معنى آخر فأصبحت تعني : المجموعة الاسلامية التي تتبع أحد المذاهب الأربعة التي استنبطت من القرآن وسنة الرسول الواردة في الكتب الستة(2) ، جملة الأحكام والقضايا والحلول التي تنظم حياة المسلم في ميداني العقائد أو العبادات والأمور الاجتماعية أو المعاملات .

وهذه المذاهب الأربعة هي :

– المالكية : نسبة إلى مالك ابن أنس الذي روى عن أهل المدينة الذين حفظوا سنة الرسول أي عمله وأقواله ولذلك يعتبر اتباع هذا المذهب أنفسهم أقرب المسلمين إلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم

– الحنفية : نسبة إلى أبي حنيفة النعمان العراقي الذي زاد على تمسّكه بسنّة الرسول استخدام العقل والرأي في استنباط الأحكام التي لم يرد في شأنها نص صريح .

1) طبقات علماء افريقية وتونس تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي ص 12
2) سنن ابن ماجة – سنن الترمذي – مسند ابن حنبل – سنن ابن داود – الصحيحان

ـ الحنبلية : نسبة إلى أحمد ابن حنبل الذي كان يرفض استعمال الرأي والقياس ولا يصدر في أحكامه إلا عن القرآن والسنّة.
ـ الشافعية : نسبة إلى الإمام الشافعي الذي كان وسطا بين المالكية والحنفية وتجدر الاشارة إلى أن هذه المذاهب الأربعة كانت تجمع الجمهور الأكبر من المسلمين لذلك أدرجت اصطلاحا في ما عرف بمذهب السنة، وما عدا ذلك من المذاهب فأطلق عليها «فرقا» أو «نحلا» أو «مللا» باعتبار أنها منفصلة عن الجمهور.

ونستثني من هذه المذاهب مذهب الخوارج الذي اعتبره بعضهم مذهبا خامسا لقرابته من المدارس السنية.

أما المذهب السائد بافريقية في القرن الرابع الهجري ـ وهي الفترة التي تعنينا ـ فهو المذهب المالكي. وقد كان سحنون التنوخي (1) هو الذي «علم أهل المغرب المذهب المالكي ولقنهم «المدوّنة» فحارب أهل البدع والضلالات وأخفت كل صوت مارق وكل نزعة عقلية، ومنع دروس الأباضية والصفرية والمعتزلة التي كانت تلقى بجامع عقبة وعزل أصحابها عن تعليم الصبية وحرم المناظرة في غير المذهب المالكي. ولأن الحالة النفسية لأهل المغرب كانت مستعدة لرفض كل دعوة أو اتجاه لا يقف عند أصول الشرع نتيجة للثورات المتكررة التي قام بها أهل الفرق من شيعة وخوارج وغيرهم، فقد اثمرت

---

1) مولده سنة 160 ه ووفاته سنة 240 ه

فيهم استاذية «سحنون » وأصبحوا ينظرون إلى المالكية وكأنها جزء من قوميتهم، فهي أمنهم ودرعهم الواقي من كل فتنة أو تمرد (1) .

ويظهر الفقهاء والشعراء في هذه الفترة كقوة سياسية تناهض الدعوة الفاطمية الشيعية فنرى أبا القاسم الفزاري يتحامل على العبيديين مستنكرا منهم تقديسهم لأئمتهم واعراضهم عن فتاوي الشيخين ، متمنيا لهم الهزيمة على يد أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري :

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم ... نالوا بهم سبب النجاة عموما(2)
وتمكن الشيطان من خطواتهم ... فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق و الفاروق في ... أحكامهم لا سلّموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن أسود نابجا وأبا عمارة واللعين تميما
يا رب فالعنهم ولقّ لعينهم ... بأبي يزيد من العذاب أليما

ونراه في موضع آخر يفتخر بالقيروان التي أسسها أصحاب بدر ويفضلها على بغداد التي أسسها أمير :

فهل للقيروان وساكنيها ... عديل حين يفتخر الفخور(3)
بلاد حشوها علم وحلم ... واسلام ومعروف وخير
عراق الشام بغداد وهذي ... عراق الغرب بينهما كثير
لست أقيس بغداد إليها ... وكيف تقاس بالسنة الشهور

---

1) طبقات علماء افريقية وتونس — تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي . ص 14 — 15
2) حوليات الجامعة التونسية — العدد العاشر — محمد اليعلاوي . ص 126 — 127
3) مجمل تاريخ الأدب التونسي ح ح عبد الوهاب ص 86 — 87 .

بلاد خطها أصحاب بــــدر ... وتلــك اختط ساحتها أميــر
بناها المستجاب (1) وقد دعا في ... جــوانبها دعاء لا يبــور
بناها كل بــدري كــريــم ... كأن صفــاح أوجههم بدور

ج - الخــوارج :

هم جماعة من أصحاب علي بن أبي طالب ، استنكروا منه قبوله للتحكيم بينه وبين معاوية فانشقوا عنه وتركوه قائليــن : «أن لا حكم إلا الله» وقد قاومهم علي على مضض فهزمهم في واقعة «النهروان» فزاد سخطهم عليهم وشرعوا في تدبير مكيدة يتخلصون بها من الخصوم الثلاثة : علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، إلاّ أنه لم يصب من هؤلاء الثلاثة إلا علي صبيحة 17 رمضان 41 هـ661 م فقد اعترضه عبد الرحمن بن ملجم في طريقه إلى مسجد الكوفة وضربه بسيف مسموم فقتله ، واستمــرت حركة الخوارج في مقاومة الحكم الأموي ثم العباسي فكانت لهم ثورات مستمرة بالعــراق وبلاد فارس وأخيرا في افريقية والمغــرب .

واشتهر من رجالهم في العصر الأموي « نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر و «عبدالله بن أباض التميمي » الذي ما لبث ان انشق عن الازارقة لأنه أبى تكفير المسلمين الذين لا يعتنقون المذهب الخارجي وعارض قتل النساء والاطفال وانتقل مذهب الاباضية إلى افريقية في مستهل القرن الثاني للهجرة فكان من

1) يعني بالمستجاب الصحابي عقبة ابن نافع مؤســس القيــروان ، وأول من اختط بها هــو مسجدها المشار إليــه هنــا .

زعمائها : عبد الرحمان بن رستم « وأبو الخطاب عبد الأعلى المعافري الذي صار أول إمام للدولة الاباضية المستقلة عن الخلافة العباسية وذلك سنة 140هـ 757م بطرابلس ليبيا، وقويت الدعوة الاباضية بانضمام القبائل البربرية الناقمة على الحكام العرب إليهم فاحتلوا القيروان سنة 141هـ 757م إلاّ أن هذه الدولة الاباضية لم تعمر طويلا إذ جندت لهم الدولة العباسية أربعين ألفا بقيادة ابن الأشعت بدّدت جموعهم (1) فالتفّت فلولهم حول عبد الرحمن ابن رستم، واعتصموا بالمغرب الأوسط فأسسوا الدولة الرستمية «بتاهرت» جنوب وهران – وتوالت ثوراتهم إلى أن قامت الدولة الفاطمية سنة 296 هـ 909م.

تعاليم الخوارج :

«يرى الخوارج أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين وإذا اختير فليس يصح أن يتنازل أو يحكّم، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشيا ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبدا حبشيا.

وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله وإلاّ وجب عزله (2) فإذا لزم أحكام القرآن فلا يجوز تقييد نفوذه بشروط. ومسألة الشروط هذه هي التي أدت إلى انقسام الاباضية، فخرج عنهم جماعة عرفوا بالنكار وإليهم ينتسب أبو يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار.

---

1) راجع ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب.
2) أحمد أمين : فجر الإسلام ص 258 – 259.

أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري

هو القائد الخارجي الذي ثار على العبديين بافريقية، يرجح أنه ولد ببلاد السودان ، إلا أن الثابت أنه ينحدر من أسرة خارجية اباضية . تلقى المبادىء الاباضية ثم انتصب مؤدبا يعلم الصبيان بتاهرت عاصمة الرستميين. وبعد انهيار الدولة الخارجية التحق بالجريد فاستقر بتوزر وأخذ في مناهضة الحكم العبيدي، وما أن بدأت دعوته تظهر حتى هبّت جموع الأنصار تعاضده، فانتقل صحبة شيخه أبي عمار الأعمى إلى جبال الأوراس فاجتمع إليه خلق كثير، فلما أحس القوة ، أعلن التمرد والعصيان فاندلعت الثـورة سنة 332هـ 943م فاحتـل تبسّـة » و « حيـدرة » وهنـاك أهدي إليه الحمـار الذي به عـرف، ودخل القيـروان سنة 333هـ 944م فانضم إليه العلماء والفقهاء الذين كانوا على استعداد لمساندة أي دعوة دينية أو سياسية أو غيرها تناوىء الحكم الفاطمي وتهدف إلى القضاء عليه، فواقعوا الشيعة » ولكن ابن كيداد طلب من جنوده في المعركة أن يتركوا علماء القيروان للاعداء فمات منهم خمسة وثمانون (1) منهم أبو الفضل عياش بن الممسي »

1) طبقات علماء افريقية وتونـس : تحقيـق علي الشابي ونعيم حسن اليافي ص 20 .

«وأبو اسحاق السبائي» وقد رثى أبو القاسم الفزاري شيخه الممسي بقصيدة منها :

بنفسي صريع حالت الخيل حـــولـــه
بمعتـــرك الأبطال أي صريـــع (1)

ولست له أبكي ولكـــن لمعشـــــــر
أصيبوا به من فرْد وجميـــــــع

وللعلم والاسلام والدين والتقى وطول احتمال واصطناع صنيع
مضى علم العلم الرفيع وطالما أصابت قناة الموت كل رفيع

وقد استمـــرت ثورة صاحب الحمار إلى سنة 336 هـ 947 م وهو التاريخ الذي تمكن فيه المنصـــور بن القائـــم الفاطمي من القضاء نهائيا على أبي يزيد مخلد بن كيداد ، ولم يؤاخذ الخليفة الفاطمي أهل القيروان بمؤازرتهم لصاحب الحمار بل أظهر من الحلم والحنكة السياسيـــة ما جعله يكسب تأييـــد قســـم كبيـــر من أهل القيـــروان .

ويدلّ على ذلـــك مـــدح الشعـــراء لـــه كأبي القاســـم الفـــزاري الـــذي دخل عليه في جملة مـــن استأمن ، وتقـــرّب إليه بالقصيدة الفـــزارية بعـــد أن مدح انتصار صاحب الحمار بأشعـــار كثيـــرة ثلب فيهـــا الفاطمييـــن .

إن هذه الأرضية من الثـــورات المتتـــالية والصـــراع المـــذهبي العنيف هي التي عـــاش على صعيـــدهـــا أبو القاسم الفـــزاري فأثّـــرت فيه وفي انتاجـــه بشكل أو بآخـــر .

---

1) مجمل تاريخ الأدب التونسي : ح. ح. عبد الوهاب — ص 87

حياته

اسمه — أصلـــه :

ذكر حسن حسني عبد الوهاب (1) أنه أحد شعراء القيروان المجيدين بها ولد وفيها نشأ وترعرع وبرع في الأدب واللغة، وأن اسمه أبو القاسم محمد بن عبد الله شهر بالفزاري، ويضيف الأستاذ الدكتور محمد اليعلاوي (2) أن بعض المترجمين له — للفزاري — كالزبيدي (ت379 — 989) يقولون انه ابن لشاعر نحوي قيرواني اسمه « عامر بن ابراهيم الفزاري » وأن أباه هذا كان عاملا للفاطميين على خراج الساحل الافريقي فهرب بالمال إلى مصر الاخشيدية ويقول أبو العرب في طبقاته أن جده (ابراهيم؟) هو الفزاري المقتول على ما شهد عليه به من التعطيل وكان من أهل الجدل والمناظرة. أهـ.

ويستنتج الدكتور اليعلاوي أن «شاعرنا على هذا الأساس هو أبو القاسم (محمد) بن عامر بن ابراهيم بن العباس الفزاري القيرواني (3).

1) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص 83 — 84
2) حوليات الجامعة التونسية . العدد العاشـــر . ص 119
3) نفـــس المصـــدر . ص 119

مولده ـ نشأته ـ وفاته :

يقول المرحوم ح. ح عبد الوهاب في ترجمته للفزاري أنه ولد بالقيروان وفيها نشأ وترعرع ولكنه لم يذكر سنة ولادته . ولم يذكر اليعلاوي ولا أي مرجع آخر شيئا عن حياة الفزاري ونشأته ومهما كان الأمر فالثابت أنه عاصر الاربعة الخلفاء الفاطميين الأول : المهدي والقائم والمنصور والسنوات الأولى من خلافة المعز (1) .

ورغم عدم استشهاده بأي مصدر فقد ذكر .ح.ح عبد الوهاب أنه توفي بالقيروان في حدود سنة 345هـ 956 م .

1) المهدي عبد الله أبـو محمد ـ 297 ـ 322 ـ 909 ـ 934 ـ م
القائم (محمد أبو القاسم) 322 ـ 334 ـ هـ 934 ـ 945 م ـ
المنصـور (اسماعيل أبو طاهـر) 334 ـ 341 هـ 945 ـ 952 م
المعـز (أبو تميـم) 341 ـ 365 هـ 952 ـ 975 م

شعـــره ومذهبـــه

لم يصلنا من شعر الفزاري إلاّ أربع قصائـــد ، ثلاث منها في هجـــاء الفاطميين ، ورثاء شيخه «أبـــي الفضل الممســـي» فلذلك أدرجها أبو بكر المالكي في كتابه «رياض النفوس» (1) أما الرابعة وعرفت بالقصيدة الفزارية – نسبة إلى صاحبها – فتشتمل على مدح خافت للفاطميين ، مسبوق بدرس مطوّل في التغنّي بمشاهير الجاهلية والاسلام ، من فرسان وأسياد وكرماء...

ويتجـــلى لنا من هذا الشعر أن الفزاري شاعر سني ، بل أنـــه فقيه سني ، فشعره ضعيف الحبكة ، قليل الطلاوة ، عديم الخيال كشعر سائـــر الفقهاء ، ولا يبلغ شيئا من القوة والابداع إلاّ في هجاء الفاطميين حيث يتعرض إلى معتقداتهم مثل تقديس الأئمّة :

عبـــدوا ملوكهم (2) وظنوا أنهم   نالوا بهم سبب النجاة عموما
وتـمكن الشيطان من خطواتهـــم   فأراهم عوج الضلال قويما(3)

ويستنكر منهم كرههم للشيخين أبي بكر الصديق ، وعمر

---

1) مجموعة تراجم لعلماء افريقيـــة وزهادها . انظر حوليات الجامعة التونسية ص 120

2) عبارة ملـــك مستقبحة عند العرب لأنها تحمل معنى الظلم والطغيان ، لهذا قال ملـــك ولـــم يقل خليفـــة .

3) حوليات الجامعة التونسيـــة : محمد اليعلاوي . ص 126

إبن الخطاب ، واعراضهم عن فتاويهم الفقهية ، كأن الشيعة لا يعترفون لهما بالقدرة على استنباط الأحكام :

رغبوا عن الصديق والفاروق في أحكامهم لا سلموا تسليما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا عمن أصارهم الالاه نجوما(1)

إلاّ أن الفزاري لا يتعرض في هجائه إلى نسبهم الفاطمي ، بالطعن ، كما يفعل أهل السنة ، بل يكتفي بمؤاخذتهم بكفرهم وزندقتهم ، ويتساءل عن حقيقة مذهبهم .

أمن اليهود ؟ أم النصارى ؟ أم هم
دهرية جعلوا الحديث قديما ؟
أم هم من الصابين ، أم هم عصبة
عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما ؟
أم هم زنادقة معطلة (2) رأوا أن لا عذاب غدا ولا تنعيما (3)

وينهي قصيدته بلعنهم معتبرا أنهم محنة ابتلى الله بها أهل افريقية .

سبحان من ابلى العباد بكفرهم وبشركهم حقبا وكان رحيماً
يا رب فالعنهم ، ولقّ لعينهم بأبي يزيد من العذاب أليما

يكمن سر نجاح هذه القصيدة الهجائية في تشبيه الفاطميين بالدهرية والزنادقة والمعطلة ، وفي التدرج من اليهود والنصارى ، وهم أهل كتاب إلى الفرق الضالة ، كأنه ينزه النصرانية

1) المصدر السابق . ص . 126
2) المعطلة عند أهل السنة هم المعتزلة الذين عطّلوا صفات الله أي جردُوه منها بإدماجها في ذاته تعالى .
3) حوليات الجامعة التونسية : محمد اليعلاوي ـ العدد العاشر ص 126

واليهود عن احتضان مثل هؤلاء ... كما يكمن في هذا الاستفهام المتلاحق ، وفي هذا الدعاء عليهم ، والابتهال إلى الله حتى يضربهم بأبي يزيد ... وإن هذا البيت الأخير يمكن أن يكون خيطاً يقودنا إلى تاريخ القصيدة ، فقد نظمت أيام فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، صاحب الحمار ، حين أوشك حكم ثالث الخلفاء الفاطميين ، اسماعيل أبو طاهر المنصور على الانهيار ، ولعل هذا ما جعل الفزاري يقدم على هجوهم بمثل هذا العنف .

وقد قدّم أبو بكر المالكي لهذا الهجاء بقوله «لأبي القاسم الفزاري أشعار كثيرة في هجو بني عبيد ... (1) والراجح أن كراهيته للشيعة هي التي أملت عليه ادراج هذا الشعر في كتابه بيد أنه رغم كثرة هذه القصائد فلم يورد منها الا ثلاث ـ كما أسلفنا ـ وأسقط القصيدة الفزارية وربما يكون مرد ذلك لأنها في مدح الخليفة الفاطمي المنصور .

والى جانب هذه الميمية نجد للفزاري قصيدة أخرى ولكنها أضعف لهجة من الأولى بل نكاد نجزم أنها بعيدة عن الهجاء ، اذ كل ما ورد فيها لا يعدو مدحاً للقيروان وأهلها ، وما عرفوا به من تقوى وزهد وصلاح ، وتمسك بالسنة ، الشيء الذي جعلها محل عناية مؤرخي القيروان ، فقد أدرج منها المالكي سبعة وستين بيتاً ، في حين اقتصر الدباغ في «معالم الإيمان» على القسم الخاص بمدح القيروان فقط .

وأيا ما يكون فليس لهذه القصيدة من قيمة إلاّ بمدحها

1) المصدر السابق . ص 126

الصريح للقيروان فالمقدمة طويلة ، ذات أبيات حكمية لا أثر للابداع فيها ، كأن يحذر من غرور الدنيا فيقـول :

سلامتهـا وان دامت سقــام   ونعمتها ، وان دامت غــرور
ومرعاها لراغبهــا وخيــم   وكثرتها لمكثرها يسيــر
تســر المرء يوما ثـم تغـدو   فتسلب مـا أتاح له السرور
وان واتتـك اقبالا ونعـمـى   فعقباها الفجائـع والقبور (1)

ويشير إلى تقلبات الدهر وحتمية الموت وأهوال يوم القيامة :

وان عـزيزها عمـا قليــل   ذليل ، والغنيّ بها فقيــر
وكــل مـؤمّل أمـل طويــل   وعمـر لو تـؤمله قصيــر
وبعد الموت أهـوال عظــام   يشيب لبعضها الطفـل الصغير
وبعد الموت للأرواح أمـــا   نعيـم في الكرامة أو سعير (2)

ثم يتعرض الفزاري إلى فتنة أعمت وعمت ، ولا يوضح قصده ، ويلتبـس الأمر فلا ندري أهو يعني الدعوة الفاطميـة الشيعية ؟ أم ثورة صاحب الحمار ؟ ويبتهل إلى الله أن ينجـي أهل القيروان من عواقب هذه الفتنة ، وينطلق بعدها إلى مدح القيروان والاشادة بعلمائها وزهادها . فيستشهد ببعض أمجادها ومآثر أهلها ، كإيواء الهاربين من الحرب ، وافتكاك السبايـا من غاصبيهن ، ومؤاساة المنكوبيـن :

هـم افتكوا سبايا كـل أرض   وفادوا ما استبد به المغير (3)

---

1) حوليات الجامعة التونسية : العدد العاشـر . محمد اليعلاوي . ص 122
2) المصـدر السابـق . ص 122
3) حوليات الجامعة التونسية . العـدد العاشـر . محمد اليعلاوي ص 123

كفيناهم عظائمها جميعـــــا فزالت عنهم تلـــك الشرور
وسكنـــا قلوبـــاً خافقـــات أمات عـــروقهـــا ضرّ ضرير
وآوينا وواسينـــا وكنـــا لهـــم أهـــلا ، وأكثرهم شطير
فبات طعامنـــا لهم طعامـــا هنـــاك ودورنا للقوم دور
كأن القيروان وهـــم عـــراة حفاة محشر فيـــه المصيـــر

ثم يتخلص الشاعر إلى التوجه بالخطاب الى معاشر لا ندري بالضبط من يكونون أهم الفاطميون ؟ أم الخـــوارج ؟ على أن إشارته إلى أنهم كانوا يعتصمون بالبحر تجعلنا نرجح أنه يعني الفاطميين الذين اعتصموا بالمهدية عندما اشتدت ثورة صاحب الحمار ، ومهما كان الأمر فان الماعه غامض، وتحامله ضعيف، وكلامه أقرب الى الاعتذار والتبرؤ منه الى الجدال المذهبي :

ألا أبلغ معاشر ليس عنـــدي لهم عذر ولا فيهم عذير (1)
نحب صلاحهـــم وهم غضاب علينـــا ، ان ذا جور كبيـــر
ضمـــائرهم مـــراض واجمـــات علينـــا ، لا أفاق لهم ضمير
ولا ذنب لنـــا الا لانّـــا سلمنا حين عمهم الثبـــور
وليس لنا كمـــا لهم حصـــون ولا جبـــل أعـــاليـــه وعـــور
ولا سور أحاط بنا ولكـــن لنا من حفظ رب العرش سور
ولا نأوى إلى بحر ، وأنـــى اذا قضي القضا تنجى البحور

ولا نسرف على الحقيقة اذا قلنا أن هذه الاشارات الخفية هى التي حدت بالمالكي وغيره أن يعتبر هذه الـــرائية هجـــاء للفـــاطميـــين .

---

1) نفـــس المصدر . ص 124

أما القصيدة الثالثة من شعر الفزاري فهي مرثية نظمهـــا في شيخه أبي الفضل الممسي ، الذي حرض أهل القيروان على محاربة الفاطميين ، والوقوف الى جانب أبي يزيد صاحب الحمار وخرج هو فعلا فلقي حتفه في وقعة المهدية، وكانت أول هزيمة يمني بها صاحب الحمار ، كما كانت في نفس الوقت بـــدء عودة الروح للدولة الفاطميـــة .

استهـــل الفـــزاري مرثيته بالتفجـــع على الفقيد :

عليك ابا الفضل انسياق دموعي وشغلي بأنواع الأسى وولوعي(1)
وناران : نار في المآقي بالبكا ونار من الاشجان بين ضلوعي

وواضح أن مطلع القصيد تقليدي لم يخرج فيه الفـــزاري عن المألوف . ثم يعدد مآثر الفقيد ومناقبه ويشير الى أعظـــم صفة له وهو أنه عاش سنّيا .

على سنّة الاسلام عـــاش كأنما يقابلـــه منها انفلاق صديع(2)

ويتعرض بعد ذلك الى ظروف استشهاده ، إلاّ أنه لا يشير الى الأطراف المتنازعة ولا ينحاز الى شق معين ، وكأنه غير واثـــق من نتيجة الفتنة ، أتكون الغلبة لصاحب الحمار؟ أم للفاطميين؟ وربما يكون مردّ ذلك الى تذبذبه ، وتذبذب أهل افريقية عامـــة ، بين هذين الشرين ، أو هاتين العداوتين : الفاطميون أصحاب المذهب الدخيل ، شاتمو الشيخين ، ومقدسو أئمتهم ، والخوارج المبالغون في تشددهم ، المعلنون عن نواياهم الثورية ، المهددون للحضـــر بميلهم الى النهب والسلب والقتل .

1) حوليات الجامعة التونسية . العدد العاشر . محمد اليعلاوي . ص 137
2) الصـــديـــع ـ الصبـــح

والشيء الذي يلفت النظر في استعراض الفزاري لظروف مقتل الممسي أنه لم يتطرّق الى معاني الشجاعة والبطولة عند الفقيد ، بل نراه يؤكد على قوّة ايمانه وورعه وصلاحه ــ وهو ما يتماشى مع شخصية زاهد صالح كالممسي :

قضى نحبه بين الأسنة والظبى(1) شهيدا مع العبّاد غير جزوع(2)
وظل الى دار العلى متطلعـا يناجي إليها نفسه بطلوع
وضمخ في مثل الخلوق (3) بطعنة
كست صدره المحمود ثوب نجيع(4)
ومدّ يمينا كان معتمدا بها لطول سجود أو لطول ركوع
وقلّب طرفاً طالما بات ساهرا بمحرابه يذري وكيف دموع(5)

وواضح أن مواقف مثل هذه لا صلة لها بالحرب ولا تعنى بحال من الأحوال أن صاحبها مات محاربا . إلاّ أن الفزاري يأبى الا أن يعده كذلك ، بل ويرتفع به إلى مصاف الشهداء ، فيندفع مصورا الحور العين وهن ينادين من شرفات الجنان الشيخ الممسي

وما مات حتى بشّر الحور باسمه وعاينّه في صحة وهجوع
وأشرفن من أعلى الجنان تشوقا ونادين فارتاح ارتياح سميع
ولو قيل : بع بعض الذي نلت بالذي
تركت لكان البعض غير مبيع

---

1) الظبي ج ظبية : حد السيف
2) حوليات الجامعة التونسية . ص 138
3) الخلوق : هو كل طيب ولكنه الزعفران خصوصا ولونه أحمر .
4) النجيع : الدم الأحمر القاني .
5) الدموع الواكفة : المسترسلة .

واذا كان مقتل الممسي قد خلف في نفس الشاعر ، اللوعة والأسى ، فإنه خلّف من ناحية أخرى ما هو أدهى من ذلك وأمر ، فبفقده فقد العلم والدين علما شامخا ، وعالما جليلا :

ولست له أبكي ، ولكن لمعشر أصيبوا به من فرّد وجميع(1)
وللعلم والاسلام والدين والتقى وطول احتمال واصطناع صنيع
مضى علم العلم الرفيع وطالما أصابت قناة الموت كل رفيع
ولولا التأسي بالنبي محـــمد وأعظم به من أسوة لمـــروع
لقل عزائي أثـــره وتصبـــري وطال بكائي بعده وخشـوعي

وينهي الفزاري مرثيته بالدعاء للفقيد أن تسقي قبـــره السحب الندية ، وأن يحله الله محلاّ رفيعاً بالجنان ، ويتمنى أن يكتب له أن يراه هناك ، وهي اشارة خفية لطلب الجنـــة لنفســه أيضـــاً :

سقى جدثا أضحى به الفضل ساكنـــا
من المـــزن خفّاق البـــروق هموع (2)
ألا ليت شعـــري هل أرى نـــور وجهــــه
بيـــوم عصيب للأنـــام جمــــوع ؟
أعدّ لك الله الكـــرامة والرضى بأعلى محل في الجنان وسيع
وجازاك عن دين النبي وهديه جزاء مريد للإلاه مطيـــــع
سأبكيك حتى يقرح الدمع مقلتـــــــي
ومـــا ذاك ان طاولته بشنيــــــــع

1) الحوليـــات . العدد العاشـــر . محمد اليعلاوي ص 138 ـــ 139
2) المصـــدر السابـــق . ص . 140

ويخلد ذكرا منـــك في كل بلـــــــــدة
شعر عجيب للـــــرّواة بديــــــــــع

وإذا كانت القصائد الثلاث السابقة قد وجدت عناية من قبل المالكي والدباغ وأهل السنة بإفريقية بصفة عامة ، لأسباب سياسية ومذهبية ـ فإن القصيدة الفزارية لم تحظ باهتمامهم لاعتبارات سياسية ومذهبية أيضاً ـ إذ أنها نظمت في مدح الخليفة الفاطمي المنصور ، والمدح فيها واضح لا تقية فيــه كما في بقية مواقف الفزارى من الأطراف المتنازعة ـ كما أسلفنا

ولعل سبب شهرتها يكمن في أن الفزاري استعرض في القسم الأول منها ـ وهو الأطول ـ اسمــاء أبطال العــرب وأجوادهــم ومشاهير رجالهم في الجاهلية بخاصة، فجاء هذا القسم التاريخى أشبه بالدرس في أيام العرب ، ولكنه درس صيغ شعرا في اشارات إيحائية عابرة ، دون الحاح في مناقب كل علم مــن هــؤلاء الأعلام ، مما يدل دلالة واضحة على أن هذه الأسماء : أوس بن سعدى ـ وقيس بن عاصم ـ وبسطام بن قيس وغيرهم ، كانت معروفة بإفريقة في القرن الرابع ، وبالتالي فإن الحضارة العربية الاسلامية بالقيــروان استــوعبت هــذا الرصيد البطولي مــن أمجاد العرب ، ولا غرابة فــإن كتب الأدب الكبرى كالأغانــي للاصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه كانت معروفة ورائجة في القرن الرابع هـ ، وهي التي تروي في اطناب أيام العرب .

وهذا الدرس التاريخي لا يخلو من مهارة ، فقد بناه عــلى

شكل جملة ناقصة مبدؤة بنفي، وتتوالى أسماء الأبطال معطوفة على بعضها بعضاً :

لعمرك ما أوس بن سعدى بقومه ولا سيد الأوبار قيس بن عاصم(1)
ولا كان ذو الحدين بين كتائـــب
لها ميم من بكر وحي اللهـــازم (2)
و ربّ معد والأحالف حـولـــه
عباب كموج اللجة المتلاطـــم (3)
ولا حاجب ذو القوس يخطر حـولـــه
قُروم كأسد الغيل من آل دارم (4)
واحنف سعد بين سعدو مالـك
ومن رامهم من نهشل والبراجـــم (5)

1) أوس بن سعدى هو أوس بن حارثة الطائي ، كان من سادات العرب وكرمائهـا، وسعـدى أمه . وقيـس بن عاصم من بني منقـر بن تميم وهو سيدهم وفيه قال الرسـول : هذا سيـد الوبـر .
2) ذو الحدين وهو مسعـود بن بسطام من بني شيبان من ربيعة وكان شريفاً سيـدا في قومـه وللهازم بطن من بني شيبان .
3) يقصد بـرب معد : قصي بن كلاب جامع كلمة قريش وباني دار ندوتها بمكة .
4) حاجب ذو القوس : هو ابن زرارة بن عدس التميمي المشهور بشـرفه فـي الجاهلية والإسلام وسمي ذا القوس لأنه كان رهن قوسه في عام شدة في أرض فارس ليحصل على توسعة لقـومـه .
5) يعني الأحنف بن قيـس التميمي وبه يضرب المثـل في الحلم عند العـرب ونهشـل والبـراجم قبيلتان .

ولا خالد سم العداة ابن جعفـــــــــــر
ولا الحارث الشهم الفؤاد بن ظالم (1)
وذو الجبلين في عصـــائب طـــــيىء
فتى الفضل والنعمى عدي بن حاتم (2)
ولا كان زيد الخيل والخير والقنـــــــا
وزيد المنايا والسيـــوف الصوارم (3)
وعمرو أبو ثور وعمرو بن عامـــــــــر
وعمرو بن عمر في الأسود الضراغم (4)
ولا كان بسطام بن قيس بن خالـــــــــد
وعمرو بن كلثوم شهاب الأراقم (5)
ولا علم الأجواد كعب بن مامـــــــــة
عقيد الثناء المحض دون اللـــوائـــم (6)

---

1) خالـــد بن جعفر سيد بني كلاب ، أما الحارث بن ظالم فهـــو أحد فـــرســـان غطفان المشهورين .
2) يعني جبلي طي وهما : أجا وسلمى ، ومن فخـــر عـــدي بن حاتم أن النبيء صلى الله عليه وسلم قـــدمه على قـــومه وأكـــرمه .
3) زيـــد الخيـــل سمي بذلـــك لطـــرادها والغارة عليها وسمـــاه الرسول بعـــد اســـلامه زيـــد الخيـــر .
4) أبـــو ثـــور عمرو بن معدى كرب البطل العربي المشهوربشجاعته وعمرو بن عامر هو ابن مـــاء السماء كان من سادات العرب وأمرائها ، وعمرو بن عمرو مـــن أشـــراف قبيـــلة عبـــس .
5) بسطام بن قيـــس الشيباني فارس قبيلـــة بكـــر بن وائـــل ، وسيـــدهـــا ، وعمـــرو بن كلثـــوم أحد أشـــراف العـــرب قاطبة وشعـــرائهـــا .
6) كعب بن مامة الأيادي أحد أجـــواد العـــرب وبه يضرب المثل في الجـــود .

ولا عـــوف المُوفي بذمّة جـــــــاره

ولا جر في واديه غير المســـــالـم (1)

ولا الأشعث الكندي بين فـــــــوارس

صفوف على أهل النجيـــر صلادم (2)

ثم يأتي الخبر :

بأمنع منّي في جوار خليفـــــة عطوف على أهل البيوتات راحم

أي أن هؤلاء الأسياد الأماجد الذين ضرب بهم المثل في القوة والبطش والكرم لم يكونوا أعز منه الان، وقد أمنه الخليفة وقرّبه .. ويواصل البيت المتمم للجملة بمدح الخليفة الفاطمي المنصـــور :

كريم المساعي والأيادي سمـــت بـــــه

أبوّة صدق من ذؤابـــة هـــاشم (3).

شريف الأداني والأقاصي مهـــــــذب

إذا ما عددنا فضل أهل المكارم (4)

وينهي قصيدته بفخر شعره وبهذه القصيدة الفزارية بالذات .

وتتجلى مهارة الفزاري في هذا التشويق إلى البقية، فالسامع

1) عـــوف بن هود الشيباني وهو المقول فيــه : (لا حرب بوادي عوف) لشـــرفه ورفعـــة مكانـــه .

2) الأشعث أميـــر كنـــدة : أسرته مذحج ففدي بما لم يفتد بـــه عزيـــز ولا أميـر ســـواه . ويعني بصفوف نجيـــر يوم أخذ الأشعث الراية.فغلب عسكـــر معاويـة على ماء بصفين وصلادم : أسود أو صلاب .

3) الذؤابة في الأصل الشعر المنسدل من الرأس الى الظهـــر ومعناها هنا السلالة أي ســـلالة هاشم جـــد النبي صلى الله عليه وسلم.

4) مجمل تاريخ الأدب التونسي . ح. ح. عبد الوهاب . ص 84 ــ 85 ــ 86 ــ

يظل ينتظر المدح إذا كان هو الممدوح، أو ينتظر خبر الجملة إذا كان قارئا عاديا ، والانتظار عادة يكون مملا، ولكن الفزاري نجح في جعله مستساغا، مقبولا، فكل بيت عبارة عن شحنة من الذكريات والمحفوظات الأدبية ــ ان جازت العبارة ــ.

ثم إن المهارة لتتجلى خاصة في هذه المقارنة الضمنية بين الممدوح وبين كل هؤلاء الأبطال الأسياد، فيفضله عليهم جميعا باستعمال صيغة التفضيل، فما كل هؤلاء.

بأمنع منّي في جوار خليفـــــة عطوفٍ على أهل البيوتات راحم

وأخيرا فإن المهارة تكمن في أن تخصيص القسم الأوفر من القصيدة لهذا الاستعراض التاريخي الأدبي، والقسم الأخير للفخر بشعره،يمكّن الشاعر من اختصار القسم المدحي، فالخليفة المنصور لم يمدح في النهاية إلا بسبعة عشر بيتا من ثلاثة وستين، والطرافة في نهايــة المطــاف أن الشــاعر خــرج عن التقسيم الثلاثي المألوف : نسيب + وصف الراحلة + مدح. فأصبح : تاريخ + مــدح + فخـــر.

أما المعاني المدحية فهي كما أسلفنا أقل غموضا من بقية مواقف الفزاري السياسية والمذهبية، فهو يعترف صراحة للفاطميين بالنسب الهاشمي العلوي

كريم المساعي والأيادي سمت بـــــه
أبوة صـــدق من ذؤابــة هـــاشـــم

له من إمام المرسليـــن وصنوهـــــــم
عليّ ، معـــال ثابتـــات الدعائـــم (1)

بل يقدم على أكثر من ذلك حين يدعو عليًّا صنو المرسلين، ولا يخفى بمـــا في تشبيهه علي بالأنبيـــاء من كفر عند أهل السنّة، والغريب إقدام الفزاري السني عليه ، إلا أن الأمر لا يقف عند هذا الحد فإذا هو يعترف للمنصور بالخلافة والامامة :

سأشكر آلاء الامام، ومن ينـــم
عن الشكر أو يسأم، فلست بسائـــــم
أبيت أمير المؤمنين ، سوى الـــــتي
يزيد سناء ذكرها في المـــواسم (2)

وقد ألح في أحد الأبيات على صفات الحلم والعفو والإمضاء عن الذنوب، والكرم وكأنه هنا يشكر المنصور على صفحه عن أهل القيروان وعنه هو، بعد خروجهم لقتال الفاطميين والوقوف إلى جانب أبي يزيد صاحب الحمار :

تقى ، وندى ما بين حلـــم ونجـــــدة
وعفوا وامضاء على كل ظالـــــم (3)

كما تعرض ولكن في شيء من التحري والغموض إلى الفتنة الخارجية فأكتفى بالتنديد بالبغاة الطامعين :

وكذبت أطماع البغاة فأدبروا لاعقابهم ما بين خاز ونادم

---

1) الحوليات . العدد العاشـــر . محمد اليعلاوي . ص 134
2) المصـــدر السابـــق . ص 134
3) الحوليات . العدد العاشـــر . محمد اليعلاوي . ص 134

رجوا من فساد الملك ما عودتـــــــهم
أما نيهم ، والله ليس بنائـــــــم (1)

وهذا الشعر أيا تكون قيمته الفنية ، يحمل الدليل على أن الفزاري لم يكن بمعزل عما يدور حوله من صراع سياسي ومذهبي وعلى أن الأدب في شعره ونثره لا يمكن إلا أن يكون صورة وصدى لحياة السياسة التي تحياها الدولة .

1) المصـــدر السابـــق . ص 134

المراجع

1) حوليات الجامعة التونسية – العدد العاشر : فصل بعنوان شعراء افريقيون معاصرون للدولة الفاطمية : محمد اليعلاوي .
2) مجمل تاريخ الأدب التونسي : ح. ح. عبد الوهاب .
3) فجر الإسلام : أحمد أمين .
4) البيان المغرب في أخبار المغرب : ابن عذاري المراكشي .
5) طبقات علماء افريقية وتونس لأبي العرب تميم القيرواني تحقيق وتقديم : علي الشابي ونعيم حسن اليافي .
6) صبح الأعشى : للقلقشندي .

منتخبات

القصيدة الرائية في هجاء بني عبيد (1)

تَلَفّع في مفَارِقه القَتيــــر وقوّس غُصنُهُ اللّدْنُ النّضيرُ
وليس يؤدب الانسان شـــيء كتأديب الحوادث إذ تدور
وانّ ببابك اللهّم عبْـــداً من الخذلان أصبح يستجير
دعاك وقد رجاك فَصُنْــه مِمـا يحاذر ذو المراقبـــة الحذور
ولا تُسلمْهُ للدنيا فَتَهْـــوي به منها بُطون أو ظُهُـــور
سلامتها ، وإن دامت ، سقــام ونعمتها، وإن دامت، غـرور
ومرعاها لراغبها وخيـــم وكثرتها لمكثرها يطيـــر
تَسُر المرء يوما ثمّ تغـــدو فتسلب ما أتاح لــه السرور
وإن واتتك اقبالا ونُعْمـــى فعُقباها الفجـــائع والقبــور
وكل الخيـــر فيهـا مستَعـار وسوف يردُّ ذاك المستعيـــر
وإنّ عــزيزها عمّا قليـــل ذليلٌ ، والغنيّ بهـا فقيـر
وكل مــؤَمّل أمـــلٌ طــويـل وعمر لو تؤمّلهُ قصيـــر
وبعد الموت أهوال عظَـــامٌ يشيب لبعضها الطفل الصغير
وتذْهلُ كل مُرْضعة لكَـــرب ليوم فيه شَرٌّ مستطيـــر

1) الحوليـــات ع 10 ــ 73 ــ محمد اليعلاوي ص 122 ــ 123 ــ 124

وبعـد المـوت للأرواح امّـا   نعيـم في الكـرامة أو سعير
عجبت لفتنة أعْمت وعمَّتْ   يقومُ بها دعِيٌّ أو كَفُـور
تَزَلْزَلَتِ المدائن والبـوادِي   لها وتلونت منهـا الدهـور
وضاقت كل أرض ذاتُ عرضٍ   ولمْ تُغْنِ المعاقِلُ والقصـور
فنجّى القيروان وسـاكنيهـا   إلاه دافعٌ عنها قَديـر
أحاط بأهلها عِلْمًا وخُبْـرًا   وميَّز ما أكَنَّتْـهُ الصُّـدُورُ
وجلَّلهم بعافيـة وأمْـنٍ   وأسْبِلَ فَوْقَها سِتْـر ستيـر
وأنبت جلة العلماء فيهـا   بحـار لا تُعـادِلُها بُحـورُ
ومنها سادة العلماء قـدمـا   إذا عدوا وليس لهـم نظيـر
وفيهـا القـوم عُبَّاد خيـار   فقـد طاب الاوائـل والأخير
شعـارهم التقى والخوف ليلا   على أقدامهم غِيبٌ حضـور
كأنهم لخوف الله مـوتى   أقامهـم إلى البعث النُّشـور
بـلاد حشْوُها علـم وحلـم   واسلام ومعـروف وخيـر
هم افتكـوا سبايا كـل أرض   وفادَوا مااستبد به المُغيـر
كفيناهم عظمائمهـا جميعاً   فـزالت عنهم تلك الشرور
وسكنـا قلوباً خافقـات   أمات عـروقها ضر ضريـر
وآوينا وواسينـا وكنـا   لهم أهـلا وأكثرهم شطير
فبات طعامنا لهم طعامـا   هنـاك ودورنـا للقوم دور
وكان لنا ثواب الله ذخـرا   وقام لشكرنـا منهم شكور
ولـولا القيروان وساكنـوها   لغاب طعامهـم والمُـحُّ رير
كأن القيـروان وهم عـراة   حفـاة ، محشـر فيه المصير
فهـل للقيـروان وساكنيهـا   عـديل نحين يفتخر الفخور

عراق الشرق بغداد وهذي   عراق الغرب بينهما كثير
ولست أقيس بغدادا إليها   وكيف تقاس بالسنة الشهور
بلاد تقصف العظماء قصفاً   إذا ما رامها منهم غدور
بلاد خطها أصحاب بدر   وتلك اختط ساحتها أمير
بناها المستجاب وقد دعا   في جوانبها دعاء لا يبور
بناها كل بدري كريم   كأن صفا وجوههم بدور
هم صلوا بمسجدها براحا   وليس له جدار مستدير
وهم وضعوا أسا متينا   فقدّست المواضع والصّخور
وقادهم الأذان إليه حتى   أضاءهم من المحراب نور
ولم يسبقهم ملك ظلوم   لتأسيس ولا ملك كفور
وأصحاب النبي له بناةٌ   فلا عصيان فيه ولا فجور
أقاموا شطر قبلتها سويا   إلى البيت العتيق فلم يجورو
وان عراصه لمقدسات   مباركة وتربته طهور
بها حلق العلوم لها دويٌّ   يجاوبها الكتاب المستنير
ألا أبلغ معاشر ليس عندي   لهم غدر ولا فيهم غدير
نحب صلاحهم وهم غضاب   علينا إن ذا جور كبير
ضمائرهم مِراض واجمات   علينا لا أفاق لهم ضمير
ولا ذنب لنا إلاّ لانا   سلمنا حين عمهم الثبور

هجاء بني عبيد

«ولأبي القاسم الفزاري أشعار كثيرة» في هجر بني عبيد منها :

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم نالوا بهم سبب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق في
أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن أسود نابحاً
وأبا عمارة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا
عمن أصارهم الالاهُ نجوما
يا ليت شعرى من هُمُ ان حصلوا
دنيا، ومن هم ان عددت صميما ؟
أمن اليهود ؟ أم النصارى ؟ أم هم
دهرية جعلوا الحديث قديما ؟
أم هم من الصابين أم من عصبة
عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما ؟
أم هم زنادقة معطلة رأوا أن لا عذاب غدا ولا تنعيما ؟
أم عصبة ثنوية قد عطلوا النورين عن ظلماتهم تعظيما ؟
من كل مذهب فرقة معلومة أخذوا بفرع وادّعوه أروما
سبحان من أبلى العباد بكفرهم وبشركهم حقباً وكان رحيما
يا رب فالعنهم ولقّ لعينهم بأبي يزيد من العذاب أليما

رثاء أبي الفضل التميمي

عليــك أَبا الفضل أنسياق دموعـــــــي
وشغــلي بأنواع الأَسى وولـــوعــــي
وناران : نـــار في المآقي من البكـــــا
ونـــار من الاشجان بين ضلــــوعــي
عــلى طاهــر الاخلاق مُبـــــــــرإ
من الســوء محمــود بكل صنيـــــع
أديب أريب مــاجــد متكــــــــرم
حليم وقــور الجانبين بــديــــــع
عــلى سنَّــة الاســلام عــاش كأنمـــــا
يقابلــه منها انفلاقٌ صـــديـــــع
مَنُـــوعٍ من الفحشاء والاثــم نفســـــه
وليــس لبــاغــي فضله بمنـــوع
بنفسي صــريــع جالت الخيــل حولـــه
بمعتــرك الأَبطال أيَّ صـــريـــــع
قضى نحبــه بيــن الأَسنــة والظُبـــي
شهيــدا مع العبَّــاد غيــر جـــزوع
وظــلَّ إلى دار العــلى متطلــعـــــا
ينـــاجي إليهـــا نفســه بطلـــوع

وضُمِّخَ في مثل الخلوق بطعنة
كست صدره المحمود ثوب نجيع
ومد يمينا كان معتمدا بها
لطول سجود أو لطول ركوع
وقلب طرفاً طالما بات ساهرا
بمحرابه يُذري وكيفَ دموع
وما مات حتى بُشِّر الحور باسمه
وعاينه في صحة وهجوع
وأشرفن من أعلى الجنان تشوقا
ونادين فارتاح ارتياح سميع
ولو قيل : بع بعض الذي نلت بالذي
تركت لكان البعض غير مبيع
ولست له أبكي ولكن لمعشر
أصيبوا به من مفرد وجميع
وللفقه والاسلام والدين والتقى
وطول اجتماع واصطناع صنيع
مضى عالم العلم الرفيع وطالما
أصابت قناة الموت كل رفيع
ولولا التأسي بالنبي محمد
وأعظم به من أُسوة لمروع
وأصحابه الاخيار والسلف الأُلى
قضوا نحبهم من مارع ومروع

وعلـمي باكـرام الشهـادة نـالهـا
سـريعـاً إليها وهـو غيـر سـروع
بجيـش لـو ان المصطفى كان شاهـدا
لجاهـد فيـه الشـرك غيـر مُضيـع
لقـلَّ عـزائي إثـره وتصبـري
وطـال بكائـي بعـده وخشـوعـي
سقى جدثا أضحى به الفضل ساكنـا
من المـزن خفـاق البـروق همـوع
ونالتـه منـا رحمة وتحيـة.
على قـرب دار أو محـل شسـوع
ألا ليت شعـري هـل أرى نـور وجهـه
بيـوم عصيب لـلأنـام جمـوع ؟
شفيعُـك فيـه يا أبا الفضل مـن لـه
غضبت رسـول الله خيـر شفيـع
أعـد لـك الله الكـرامـة والـرضـى
بأعلى محـل في الجنـان وسيـع
وجـازاك عـن ديـن النبي وهـديـه
جـزاء مـريـد للإلاه مطيـع
سأبكيـك حتى يقـرح الدمع مقلتـي
ومـا ذاك ان طاولته بشنيـع
ويُخلـد ذكـرا منـك في كـل بلـدة
شعـر عجيـب للـرواة بـديـع

علي بن الإيادي

تمهيد

يقول المرحوم حسن حسني عبد الوهاب : «قضى المشرق فترة من الزمان منعكفاً على أبي نواس والبحتري والمتنبي ولا سيما المعري وابن سيناء ، وهم وإن كانوا بلا مراء من مفاخر الآداب العربية وأمجادها ، الا أنه لا يجوز أن يقتصر جهد الباحثين عليهم وان يفتنوا بآثارهم فتوناً ربما يحصر آفاق الشباب الناهض ويجعله قانعاً بذلك النصيب بينما يوجد لديهم خضم تلاطمت أمواجه وغمر عبابه الزاخر سواحل المشرق والمغرب على السواء .

ويذكر من هؤلاء الذين ظهروا في المغرب ابن رشيق ، وابن حزم، وعلي بن الايادي ، وابن هاني وغيرهم » .

ونظرنا ، فرأينا من هؤلاء علي بن الايادي التونسي الشاعر رأيناه في المغرب وفي القيروان بالذات يشبه البحتري في المشرق ولكنه لم يحظ بدراسة تكشف عن مكانته في الشعر ، وربما كان ذلك حظ أدباء المغرب العربي ونقاده وعلمائه بصفة عامة وربما يكون مرد ذلك كما يقول الأستاذ أحمد الشايب :

ان هذا الصقع الغربي من الوطن العربي قد أصيب بانقطاع الحلقات ، بخلاف المشرق فإن يقظة شعوبه ، وتوافر مصادره ، واتصال حياته منذ فجر التاريخ قد أعان على دراسة أعلامه وتتبع جهوده ... غير أنه مهما تكن الأسباب فإنها لا تبرر ترك قرون ثمانية في تاريخ الحضارة الأندلسية ، كانت تزهى بأدبها العربى وطابعها الاسلامي ... ولا ترك افريقية تشقى بالجدب والنسيان طوال هذه القرون وإلى عصرنا الحاضر (1) » .

وأيا كانت أسباب هذا الاهمال فإن افريقية والقيروان بخاصة كانت : « منذ الفتح إلى أن خربها الاعراب دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم ، وقد ألّف الناس فى اخبار القيروان ومناقبه ، وذكر علمائه ، ومن كان فيه من الزهاد والصالحين والمتبتلين كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف ، وكتاب بن زيادة الله الطبني (2) » .

ولقد كان حسب الرجل أن ينتمي إلى القيروان حتى يعرف بالعلم والأدب ، وقد ذكرت كتب التراجم منهم من لا يتسع المقام لذكر أسمائهم ، وانما نشير الى واحد يعنينا في هذا البحث وهو علي بن الايادي التونسي . .

1) أصول النقد الأدبي .
2) المعجب في تخليص أخبار المغرب : الواحدي المراكشي .

حياته

اسـمه ـ مولـده :

ترجـم له المرحوم حسن حسني عبد الوهاب فقـال :
علي بن محمـد الايادي ، نشأ وتربى بمدينة تونس ، ثم التحق بخدمة الدولة العبيدية بالقيروان والمهدية ، وكان أشهر شاعر افريقي في مدة القائم بن المهدي وولده اسماعيل المنصور . وقد عمّر طويلا ومات في أيام المعز لـدين الله الفاطمي (1) وعلى هذا الأساس يكون شاعرنا قد عصر خلفاء بني عبيد الأربعة : المهدى والقائم والمنصور وأخيرا المعز (2) ...

أما عن مولده ونشأته فلا نعرف عنهما شيئاً سوى ما ذكره الدكتور محمد اليعلاوي (3) من أنه أصيل «المسيلة» حـاضرة الزاب

---

1) مجمل تاريخ الأدب التونسي لحسن حسني عبد الوهاب ص 96 .
2) المهدي عبيد الله أبو محمد) 297 ـ 322 هـ 909 ـ934 هـ
القائم (محمد أبو القاسم) 322 ـ 334 هـ 934 ـ 945 م
3) الحوليات ع 73/10/ ص 97
المنصور (اسماعيل أبو طاهر) 334هـ 341 ـ 945 ـ 952 م .
المعز (أبو تميم) 341 ـ 365هـ ـ 952 ـ 975 م .

الجزائري. على الرغم من دعوته بالتونسي . ويضيف اليعلاوي بأن «إيــاد » التي ينسب إليها شاعرنا هي فرع من قبيلــة «الاثبـــاج» التي كانت نازلة بجبال «المعـاضيـد» شمالي شط الحضنة والمسيلة . والاثباج ، مثل زغبة ورياح ، بطن من بني هلال» ويستنتج اليعلاوي ان الايادي مشترك بين الجزائــر وتــونس مثــل ابن هــانيء .

وفــاتــــه :

أما وفاته فقد أرخها ح . ح . عبد الوهاب بسنة 365هـ 976م ولكنه لم يذكر مكان وفاته . غير أن الدكتور محمد اليعــلاوي استنتج من عبارة ابن رشيق في «قراضة الذهب» ان الشاعــــر قد يكون توفي بالقاهرة حيث كان التحق بالمعز بعد أن لاقى في طريقه إليه الأهوال والصعاب (1)

1) نفس المصدر . ص 98

شعـــره

ومع إنا لم نقف له على ديوان مطبوع يضم شعره، فقــد وقفنا على بعض انتاجه من الشعر، وجدناه فيما تناثر من كتاب زهر الآداب للحصري وفيما ذكرته كتب التراجم حين تعرضت له أو لتاريخ عصره أو لتاريخ معاصريه . وقد جمع من ذلك الشعر المنشور في مطاوي الكتب العلاّمة ح. ح. عبد الوهاب وذلك في كتابه «مجمل تاريخ الأدب التونسي».

ولكي نستبين شاعرية علي بن الايادي نسوق ما قاله ابن شرف عندما عرّف به «... شعره هو المورد العذب، ولفظه هو اللؤلؤ الرطب، وهو بحتري الغرب، يصف الحمام، فيروق الأنام، ويشبب فيعشق، ويحبب، ويمدح فيمنح أكثـــــر ممـــا يمـــنـــح . . . (1) ».

وهذه الاشادة من ناقد حصيف تسجل لنـــا عدة حقائـــق :

1) جلّ شعر الايادي كان منتشرا في أواسط القرن الخامس هجري

2) تضمن هذا الشعر كثيرا من الاغراض كالمديح والغزل والوصف

---

1) رسائل الانتقاد ص : 22 — تحقيق . ح. ح. عبد الوهاب .

3) براعـة الايادي في فن الوصف حتى أنه يشبه بالبحتـرى
4) التمثل بالمشارقة وقد عدّ بعضهم ذلك ضرب من ضروب الشعور بالنقص والذي نقرره في هذا الصدد أن مطلع الثقافة العربية في مختلف فروعها إنما كان في شرق الدولة العربية ، فالشعر ، وعلوم اللسان وكذلك علوم الدين التي تفرعت عـن القرآن والسنة كلها نبتت وأزدهرت في الجزيرة العربية وفيما جاورها من أقاليم ، تبعتها تبعية سياسية ، ثم كانت أن طارت هذه الثقافات على أجنحة العرب الفاتحين والمهاجرين إلى المغرب .

ولسنا ننكر أن قد قامت في المغرب مدارس ومذاهب ولكننا نستطيع أن نقول غير مجاوزين الحقيقة : أنه برغم امتـداد السنين بالفاتحين والمهاجرين وبرغم استقرارهم في البلاد المغربية الجديدة وبرغم نشوء طبقات من المغاربة كان لهم حظ كبير من العلم والمعرفة ـ برغم ذلك كله ـ فإن أثر المشـرق في المغرب ، وأثر المشارقة في المغاربة ظل قويا وقائما على طول المدى حتى ما نكاد نستبين أثر الاقليمية في نتاج هذا الجزء من الدولة الاسلامية اذ «لم تضع حدود الأقاليم حواجـز أو فواصل في سبيل العلماء والأدباء والكتاب والشعراء » (1) .

وإنما بقي أولئك يقتفون أثر هؤلاء لأن المغلوب ـ كما يقول ابن خلدون ـ مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائـده والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال

---

1) العربية ليوهان فك ص 168 ترجمة محمد عبد الله دراز

فيمن غلبها وانقادت لـــه ... وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهـــم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمـــا وما ذلك الا لاعتقادهـــم الكمـــال فيهـــم . (1)

وأهل المشرق على الجمـــلة أرسخ في صناعة تعليم العلـــم بل وفي سائـــر الصنائع حتى أنه ليظن كثير من رحالة أهـــل المغرب الى المشرق في طلب العلـــم ، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى وان نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغزب (2) .

والحقيقة كما يقول ابن خلدون بعد الذي تقدم أن «ليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة (3) » وإنما تعلق المغرب بالمشرق تعلق الفرع بأصله أو تعلق اللاحق بالسابق والمتأخر بالمتقدم ، وهذه حقيقة يؤكدها تناقل المعارف وحملها من المشرق الى الغرب وارتحال المتعلمين من المغرب الى المشرق ينهلون من موارده ليعودوا الى بلادهم فيجلسوا مجالس الأساتذة .

ونلفت النظر هنا إلى أن الغرب بوقوعه بين مشرق الدولـــة العربية وبين الأندلس طرفها الأقصى من المغرب قد تهيّأ له بذلك ما جعله محط العلماء من كل فج وصقع ، فهو على الطريق

---

1) المقدمة ص 164 .

2) المقدمة ص 483

3) .المقدمة ص 483

بين طرفي الدولة، والراحلون من المشرق إلى الأندلس والآيبون من الأندلس إلى المشرق يمرون به وكثيرون منهم تعجبهم الحياة فيه فيحطون رحالهم حط اقامة حتى كانت للغرب بذلــــك كله حركة علمية لا تقل عن مثيلتها في الشرق . (1)

ولكن برغم مما كان يحاوله المغرب من منافسة المشرق وأن تكون له شخصيته المتميزة فإن علماءه وأدباءه وشعــراءه ظلوا وهم يرون في المشرق وعلمائه وأدبائــه الأب الروحي لهم، يتطلعون إليه تطلع الولد إلى أبيه والتلميذ إلى أستاذه ولا عجب في أن يتعلق الفرع بالأصل «ويأخذ الأدنى عن الأعلى» (2) .

وخلاصة هذا الترابط بين الشرق والغرب، مع نظرة الغرب إلى الشرق، أن هذا الجزء من الدولة العربية ظل ينتج ويكتــب ويؤلف على غرار ما كانت الكتابة والتأليف في الشرق، ولــم تختلف شخصية المغاربة عن المشارقة في أدبهم وعلومهــم، اللهــم الا اختلافاً يسيــرا .

على أن ابن شرف حين يطلق على «علي بن الأيادي» لقــب «بحتري الغرب» فانه عندنا لم يبالغ فما هو بأقل منه ولا شعره دون شعره، ومع ما في أيدينا من قلة الا أنها قلة تدل على أنــه شعر يسمو بصاحبه إلى صفوف المجيدين من الشعراء، وسنعرض من قوله في الأغراض المختلفة ما يقوم شاهدا ودليلا على شاعريته .

1) ابن رشيق : عبد الرؤوف مخلوف
2) تيارات أدبية ص 127 : تأليف ابراهيم سلامة .

الوصف

إذا كان ابن رشيق يقول : «الشعر الا أقلّهُ راجع إلى الوصف ولا سبيل إلى حصره واستقصائـه (1) » فانا نقول بأن الايادي قال في هذا الباب الكثير والمقطوعات التي وصلتنا تقوم شاهدا على براعته في تقليب المعاني وتوليد الصور فهذا وصفـه لـ « دار البحر » وهو القصر الذي انشأه المنصور بن القائم بصبـرة (المنصورية) سنة 337 هـ (2) وسمّي بالبحر لانه اشتمل في ارجائه على بركة عظيمة ذات قطرين :

ولمـا استطال المجد واستولـت العـلا
على النجم وامتد الرواق المـروّق (3)
بنى قبّـة للملـك في وسـط جنّـة
لها منظر يزهى به الطرف مونـق

1) العمدة .
2) ذكر المؤرخون أن المنصور العبيدي أنفق على إنشاء هذا القصر ثلا ثمائة الف دينار. ولم يبق اليوم من هذا القصر سوى أعمدة مرمرية متناهية الحجم ملقاة على وجه الأرض في المكان المعروف بهندي صبرة .
3) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص : 97 .

بممشوقـة (1) الساحات أما عـراصهـا
فخضر وأما طيـرها فهـي نطـق
تحف بقصـر ذي قصـور كـأنمـا
تـرى البحر في أرجـائـه يتدفـق
لـه بركة للمـاء مـلء فضـائـه
تخب بقطريها العيون وتعنـق (2)

ان أول ما نقع عليه في هذا الوصف أن الايادي دقيق الملاحظة دقيق التصوير، فهو لا يدع من المشهد شاردة أو واردة إلا ويأتي عليها فكأنما هو مكلف بأن يستنفد كل ما فيـه .

إلا أن الايادي ليس دقيقاً ولا متقصيا فحسب وإنما مفصلا أشد التفصيل حتى ليساعد على تصور هيئة هذا القصر وأقسامه فالبركة مثلا يزودها نهـر :

لها جـدول ينصب فيها كأنـه
حسام جلاه القين بالأرض ملصق (3)

وقد أقيم في وسطها مجلس للهو أو للنزهة وتسريح العين :

لهـا مجلس قد قام في وسط مائهـا
كما قام في فيض الفرات الخورنق (4)

---

1) ممشوقة أي حسنة .
2) تخبّ : أي تعدو عدوا فسيحا ، وتعنق تسير بأمعان
3) جلاه القين : أي صقله الحداد
4) الخورنق : هو قصر عظيم على نهر الفرات

ان الايادي عدا وصفه للقصر وصفاً واقعياً فيه من الدقة والتفصيل الشيء الكثير وعدا استناده إلى مخيلة خصبة ساهمت في تجسيد المشهد حتى لهو واقع ماثل تحت الحواس ، نراه كسائر المغاربة يباهي المشارقة بهذا المعلم الحضاري ، فيشبّهه بقصر المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة بالعراق قبل الاسلام بل نراه اكثر من ذلك يشير لكن بصورة خفية لطيفة فيها كثير من اللباقة والعفوية إلى الصورة القرآنية في وصف القصر الذي بناه سليمان لبلقيس ملكة سبأ : «فلما رأته حسبته لجّة وكشفت عن ساقيها ، قال : انه صرح ممرد من قوارير» (النمل الآية 44) .

إلا أنه قلب التشبيه القرآني ، فاللجة هي التي أصبحت كالزجاج الأزرق :

كأن صفاء الماء فيها وحسنه   زجاج صفت أرجاؤه فهو أزرق

ولنلاحظ أن الشاعر بالاضافة إلى الدقة يذهب إلى أبعد من الظاهر فيبدع للمشهد صورا بديعة غريبة : فإذا انعكست على الماء أضواء النجوم المتراقصة ، بدت كأنها لهيب يأكل سحنة الزنجي السوداء ، أما أشعة الشمس فتحدث فيها بريقا خلاّباً كلآليء تاج الأمير بيواقيته :

إذا بث فيها الليل أشخاص نجمه
رأيت وجوه الزّنج بالنار تحرق

وإن صافحتها الشمس لاحت كأنها
فرند على تاج المعز ورونق (1)
كأن شرفات المقاصر حولها عذارى عليهن الملاء الممنطق

إنك حين تقرأ البيت الأخير تستقرىء ميزة أخرى من ميزات الايادي وهي المحافظة على الطاقة الإيحائية، فالشاعر يشعرنا بأن البركة محاطة بعدة غرف أو مقاصير ذات طوابق وشرفات، وأن هذه الشرفات تكتنف ثغرة الغرفة أي بابها كما يكتنف الحزام قوام العذراء البيضاء .

ولئن بدأنا دراسة شعر علي بن الايادي بالوصف فلأنه أوسع أبوابه - كما أسلفنا - ومواضيع وصفه تتنوع بتنوع الحياة وألوانها. فقد وصف فرسا للأمير جعفر بن القائم فإذا هو يتقصى الموصوف ليصفه بدقة، وجاء وصفه بحق نوع من الغنائية يعبر بها عن عاطفة رقيقة وشعور بالجمال :

وأقب من لحق الجياد كأنه قصر تباعد ركنه عن ركنه(2)
وكأنما انفجر الصباح بوجهه حسناً أو احتبس الظلام بمتنه
مستبطر بالراكبين كأنه باز تروح به الجنوب لوكنه (3)

---

1) الفرند: السيف وجوهره ووشيه والمقصود منه هنا، السناء البراق، وقد كان الخلفاء العبيديون يلبسون في المواكب تيجاناً من الذهب وكللة باليواقيت والجواهر .
2) وأقب : متواصل السير ولاج في الهناة، والقبب بالتحريك دقة الخصر وضمور البطن واللحق الضامرة أو السريعة .
3) مستبطر : مسرع، ووكنه أي عشه .

حلو الصهيل تخال في لهواتــه حاد يصوغ بدائعا من لحنه
ذو نخوة شمخت بـه عن نــدّه وشهامة طمحت به عن قرنه
قد راح يحمل جعفر بن محمد حمل النسيم لوابل من مزنه (1)

ووصف أسطول القائم الفاطمي بالمهدية فإذا وصفه واقعي حسي لا يحتاج إلى امعان لفهمه :

أعجب لأسطول الإمام محمــد ولحسنه وزمانه المستغــرب
لبست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المستعجب
من كل مشرفة على ما قابلــت اشراف صدر الأجدل المنتصب (2)
دهماء قد لبست ثياب تصنّــع تسبي العقول على ثياب ترهب
من كل أبيض في الهواء منشــر منها وأسحم في الخليج مغيّب (3)
كقوادم النسر المرفرف عريّت من كاسيات رياشه المتهدّب...
سَجَرُوا جواحم نارها فتقاذفــوا منها بألسن ما رح متلهب (4)
محفوفة بمجاذف مصفــوفــة في الجانبين دوين صلب صلّب
وتحثها أيدي الرجال إذا ونت بمصعد منه بعيــد مصــوّب
جوفاء تحمل كوكبا في جوفها يوم الرهان وتستقل بمركب
يعلو بها حدب العباب مطــارة في كل لج زاخر مغلوب (5)

---

1) زهر الآداب للحصري ص 314 ومجمل تاريخ الأدب التونسي . ص 98
2) الأجدل : هو الصقر
3) أسحم : أسود
4) سَجَرُوا جواحم نارها : ملؤوها وقودا وهو يشير إلى النفط التي كانت تلقى على العدو في الحروب
5) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص : 98 — 99

ولقد تميز الايادي بحبه الجمال، سعى إليه انى كان وعشقه في ابسط الموجودات فحتى الزهرة الضائعة بين ركام الأشواك تستهويه وتستوقفه وجوده :

نـمّ بالروض خفق الريـاح   واقتدح الشرق زناد الصباح
وأخجل الورد شعاع الضحى   وابتسمت فيه ثغور الأقاح
وقام في الدوح لنعي الدجى   حمائم تطربنا بالصياح
مذ ولد الصبح ومات الدجى   صاحت فلم ندر غنى أم نواح(1)

ولا شك أن هذا التدقيق في الوصف إلى حد الاهتمام بالجزئيات والخيال الخصب الذي يستمد صوره من الواقع والتماس النواحي الجمالية، والمحافظة على الطاقة الايحائية، يجعل من الايادي شاعرا من طراز الشعراء الوصافين كالبحتري وابن المعتز وغيرهما.

1) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص : 101

الغـــزل

بيد أننا إذا قسناما وصلنا من شعر الايادي في الأغراض الأخرى بما وصلنا من مواضيع الوصف، الفيناه قليلا جدا، بل أقل من القليل، ففي باب الغزل مثلا لم نعثر له إلا على مقطوعة قصيرة، لكنها – رغم قصرها – تشهد له ببراعة فائقة. فهو في غزله كما رأيناه في الوصف عامة، كثير الصور الفنية يستند إلى خيال خصب، وعين نفاذة تطمح : أبدا إلى استجلاء المفاتن ولعلّ الطرافة في هذه المقطوعة تكمن في طرق معنى طيف الحبيب الذي يزور العاشق المسهد :

طيف يزورك من حبيب هاجر أهلا به وبطيفه من زائر (1)
شق الدجى وسرى فأمعن في السرى حتى ألمّ فبات بين محاجري

فقد كنى عن التسهيد باقامة الطيف بين المحاجر، أي في موضع العينين أو بين الجفون، كما شخص الطيف بتصوير قوامه الأهيف وعنقه الرقيق الطويل :

يحدو به هيف القوام المنثني نحوي، وسالفة الغزال النافر(2)

1) زهر الآداب للحصري . ص 703
2) المصدر السابق . ص 703

وهو تخيّل للحبيب المهاجر ، إذ يجري الشاعر مفاضلة بين الحبيب وطيفه، فينسب إلى الطيف وفاء خلا منه قلب الحبيب، ورحمة للعاشق تمثلت في هذا الوصال المعوض عن هجر الحبيب

لله درّك مــن خيـــال واصل أسرى فأنصف من حبيب هاجر
عللّت غلة قلب صب هائـــم وقضيت ذمة فيض دمع قاطر(1)

إن أول ما يسترعي إهتمام الدارس لهذه المقطوعة أن غزل الايادي رقيق استمد رقته من حياة الحواضر الفاطمية، كمااستمدها بنوع أخصّ من ذوق الأيادي ومن رهافة حسه ورقة طبعه وتمكنه من استخدام الأجهزة اللغوية حسب مقتضى الحال.

ذلك هو أسلوب الأيادي في غزله، ووصفه، خاصة، ولا بد من الاشارة في النهاية إلى ناحية هامة من أسلوبه، وهي كيف كان يستخدم اللفظة، وما صلة الكلمة بالمعاني.

كان الايادي- كما أسلفنا - يستقصي المعاني حتى لا تفلت منها أية شاردة ويتعمقها حتى يلم بجزئياتها مهما كانت يسيرة.

وكانت الكلمة عنده ضرورية ضرورة المعنى، أي أنه يسعى إليها جادا لتؤدي معانيه على أتمها، فما يرضى بالكلمة القريبة من المعنى المراد بل هو يريدها مطابقة له دون زيادة أو نقصان. إذن ثمة إرتباط قوي بين المعنى واللفظ، لا يكتمل بدونه شعره.

---

1) زهر الآداب للحصري . ص 703

المَــدح

المديح عامــة ثناء يسبغه الشاعر على ممدوحه، إما إعترافــا بفضل أو طمعا في النوال. ولم يشذ عن هذه القاعدة من الشعراء إلا النادرون جدّا كأبي الطيب المتنبي في المشرق الذي كان يغني البطولة الماثلة في أعماقه، أكثر مما يغني الممدوح. وكابن هانئ في المغرب الذي كان شاعر فكرة ودعوة.

أما شاعرنا الايادي الذي عاش في كنف القائم بن المهدي وولده اسماعيل أبو طاهر وبالتالي في أوج انتشار المذهب الشيعي بافريقية فإن ما وصلنا من مدائحه نراها «تخلو غالبا من الاشارات السياسية إلى أحقية الفاطميين بخلافة المسلمين، وإلى شرعية امامتهم ووجوب الولاء لهم، وهي المعاني التي تطفح بها مدائح ابن هانئ للمعز العبيدي. ولعل هذا الاعتدال في الاشارات الشيعية ـ ان لم يكن ناتجا عن حذف من الرواة ـ هو الذي جعله مغمورا عند الفاطميين وطمس آثاره في كتبهم وحتى في كتب منافسيهم(1)

ولا نزعم أن كل مديح الايــادي يخلو تمامــا من الاشارات السياسية فهذا هو، حين بويع المنصور خليفة سنة 334هـ ينطلق في

1) الحوليات ع 73/10 ص 99 : محمد اليعلاوي

مدحه وكأنه ملك من الملوك لا إماما ذا مذهب ودعوة وطموح إلى جمع كلمة المسلمين تحت رايته (1)

لقد سنّ اسماعيل سنّة جـــده   لكل فصيح في البلاد وأعجم
وقلد حقّ المسلمين بحقّــــه   فتمت به النعمى على كل مسلم
مليك إذا سل السيوف عـلى العـــــدى
دجا الليل أو تُروى السيوف من الدّم (2)

بل انّا نراه في أعظم انتصار للفاطميين، وهو انتصارهم على ثورة صاحب الحمار الذي كاد يزعزع ملكهم، لا يولي اهتمامه إلا بالملك والثائر غير عابيء بقوى الصراع المتمثلة في مذهب الشيعة من جهة والاباضية من جهة أخرى :

فارتقى الملعون من خيفتـــه   في ذرى أعيط عال مصعد
في ذرى خلقاء ملساء عـلـى   ذلك المعقل ليست بصـــدد
معقـــل من فــوقه الله ومـــن   تحته المنصور في جيش معد
فارتقى المنصور بالسيف لـــه   يوم طعن كشابيب البـــرد
واثقا بالله في غربتــــــــه   من بني أحمد ناء منفـــرد

إلا ان أهمية القصيدة تتمثل في التصوير الجيد لنهاية صاحب الحمار وهي بهذا الاعتبار وثيقة تاريخية توضح الكيفية التي مات بها الثائر :

1) نفس المصدر ص 115 .
2) نفس المصدر ص 113 ـ 114 .

فنضا عنه أديما دنســـــا كان قد أسرف فيه ومـــردْ
كأديم التيس لما لـــم يطـــب ريحُه جُـــرّد منـــه فانجـــرد
وحشـــاه سالخوه سعفـــــا مالئا بين كعـــوب وكتــــد
ثمّ رقاه على مستحصـــــــــد باسق أجــرد ما فيه أود (1)

ويبدو اعتدال الايادي في الاشارات السياسية في قصيدة أخرى مدح بها المنصور سنة 334 هـ عندما خرج من قصره في عيد الفطر للصلاة بالناس. فلا نجد حديثا عن شرعية الإمام بلا نلاحظ أن المعاني التي اهتم بها الايادي هي رغد العيش في كنف المنصور فعبر عن هذه السعادة بصورة المرأة الحبلى بالمواعيد الطيبة وقد وضعت حملها، أى حققت الأماني (2) :

توسم صباح المجد من أين يشـــــرق
وعرف الرضى والحلم من أين يعبــق
ومثّل ـ على أن النجوم كثيرة بـــأي سراج تهتدي فتوفــق
لقد صح للمرتاد ما كـــان يبتغـــــــي
وصاب له الغيث الذي كان يبــرق
وقد كانت الأيام خرسا فأصبحـــــت
لها ألســـن بالشكـــر لله تنطــــــق
فما بعد هذا للوسائل ملجـــأ ولا للمنى في غيره متعلــق

1) الحوليات ع 73/10/ ص 102 : محمد اليعلاوي
2) الحوليات ع 73/10/ : محمد اليعلاوي . ص 107

فقد وضعت تلك المواعيد حملهـــــــا
تمـــاما وكانت قبل ذلك تطلــــق(1)

هذا هو الأيادي في مديحه، مديح أبرز سماته الاعتدال، وخوفت نزعة التشيع، وفي هذا دليل على أن الأيادي لم يكن سوى شاعر بلاط.

على أنه رغم كل شيء، فان ما وصلنا من شعر الايادي على قلته في كل الأغراض التي استعرضناها يقوم برهانا بينا، وحجة ناصعة على شاعريته. ولو أنه وصل إلينا شعره كاملا لاستبان الناس فيه شاعرا يمكن أن يكون بين شعراء المغرب كما كان البحتري وابن الرومي وابن المعتز في المشــرق.

1) الحوليات ع 79/17 : محمد اليعلاوي ص 51 .

المراجع

1 ـــ رسائل الانتقاد ... ... ابن شرف . تحقيق ح. ح. عبد الوهاب

2 ـــ العمدة ... ... ابن رشيق

3 ـــ المقدمة ... ... ابن خلدون

4 ـــ المعجب في تخليص أخبار المغرب ... ...الواحدي المراكشي

5 ـــ زهر الآداب وثمر الألباب ... ... ابراهيم الحصري

6 ـــ ابن رشيق ... ... عبد الرؤوف مخلوف

7 ـــ أصول النقد الأدبي ... ... أحمد الشايب

8 ـــ مجمل تاريخ الأدب التونسي ... ... حسن حسني عبد الوهاب

9 ـــ العربية ... ... يوهان فك . ترجمة عبد الله دراز

10 ـــ تيارات أدبية ... ... ابراهيم سلامة

11 ـــ حوليات الجامعة التونسية ... ... ع. 73/10 فصل بعنوان: شعراء افريقيون معاصرون للدولة الفاطمية : محمد اليعلاوي

12 ـــ حوليات الجامعة التونسية ... ... ع. 79/17/ فصل بعنوان شعراء افريقيون محمد اليعلاوي

منتخبات

وصف قصر

«ولمّـــا اسْتَطَالَ ٱلْمجْدُ وٱسْتَوْلَتِ البُنَـــى
على النَّجْمِ، وٱمْتَدَّ الرّواقُ المُروّقُ (1)
«بنَى قُبَّةً لِلْمُلْكِ في وسْطِ جنَّـــــة
لهـــا منظر يُزْهَى به الطَّــرْفُ مُـــونــقُ
«بِممْشُوقَةِ السَّاحاتِ» أما عِــراصُهَـــا
فَخُضْرٌ، وأمَّـــا طَيْرُهَا فَهْيَ نُطَّـــقُ
«تَحُفُّ بِقَصْرٍ ذي قُصُور كَأنَّمـــــا
تَرى البحْر فِي أرْجائِهِ يتَــدَفَّـــــقُ
«لــه بِرْكَةٌ للماء مِــلْء فَضَــائِــــهِ
تَخُبُّ بِقُطْرِيْهَا العُيونُ وتَعْنَـــــقُ (2)
«لَهَـــا جذْولٌ ينْصبُّ فيها كأنَّـــــه
حُسامٌ جلاهُ القَيْــنُ بالأرْض مُلْصـــقُ
«لَهَا مجْلِسٌ قَدْ قَام فِي وسْطِ مـــائِهَـــا
كَمـــا قَام فِي فَيْضِ الفُراتِ الخَــوْرنَــقُ

---

1) مروّق ؛ بيت مروّق ، له رواق
2) الخبب والعنق ضربان من سير الدواب .

كَـأنَّ صفَاء الماءِ فيها وحُسْنَـــــه
زجـاجٌ صفَتْ أَرْجـاؤه فهـو أزرق
«إذَا بثَّ فيها اللَّيْلُ أَشْخَاص نَجْمِـــه
رأَيْتَ وُجُوه الزَّنْجِ بالنَّارِ تُحْـــرقُ
«وإنْ صافَحتْهَا الشَّمْسُ لاَحتْ كَأنَّهَـــا
فِرِنْـدٌ على تاج المُعِـزِّ ورونَـــقُ
«كأنَّ شَرافَاتِ المقَاصِرِ حوْلَهَـــا
عذَارى علَيْهِنَّ المُلاَءُ المُنْطَـــقُ
«يذُوبُ الجُفَاءُ الجعْدُ عن وجه مائهـــا
كما ذاب آلُ الصَّحْصحانِ المرقرِقُ..»(1)

1) الال : السراب ، / والصحصحان : الارض الجرداء الملساء والجفاء الزبد المتراكم

وصف اسطول

أعْجِبْ لأُسطُولِ الإمامِ مُحمَّـــــــــد
ولِحُسْنِهِ وزَمـانِـهِ الْمُسْتَغْـــــذَبِ
لَبِستْ بِـهِ الأمْواجُ أحْسنَ منظـــــر
يبــدو لعين النَّاظر الْمُتَعجِّـــــب
من كلِّ مُشْرِفَةٍ علىَ ما قَابلَـــــتْ
إشرافَ صدرِ الأَجْدَلِ المتنصِّـــبِ
دَهْماءُ قَدْ لَبِستْ ثِياب تَصنُّـــــع
تسْبِي العقولَ على ثياب تَـرهُّـــبِ
مـنْ كُلِّ أبيـضَ في الهَواءِ مُنَشَّـــرِ
منها، وأسْحـم فِي الْخَلِيج مُغَيَّـــبِ
كَمُلاَءَةٍفِي البرِّ يقْطَعُ شَــدُّهَـــــا
فِـي البحْرِ أنفَاس الرِّيـاح الشُّـــذَّب
مخْفُوفَــةٌ بمجـادفٍ مصْفُـوفَـــــة
فـي جانِبيْــنِ دُوَيْنَ صُلْـبِ صُلَّـــبِ
كَقَوادِمِ النَّسْرِ المُرفْرفِ عُـرِّيَـــتْ
مــن كَاسِياتِ رِيـاشِـهِ المُتَهَـــدِّبِ

تَحْتَشُّهَا أَيْدِي الرِّجالِ إذا ونَتْ
بِمُصعَّدٍ مِنْهُ بُعيْدَ مُصوَّبِ
خرقاءُ تَذْهَبُ إنْ يدٌ لَمْ تَهْدِهَا
فِي كلِّ أَوْبٍ لِلرِّياح ومذْهَبِ
جوْفَاءُ تَحْمِلُ موْكبا في جوْفِهَا
يوْم الرِّهَانِ وتَسْتَقِلُّ بِموْكِبِ
ولَهَا جناحٌ يُسْتَعارُ يُطِيرُهَا
طَوْعَ الرِّياحِ وراحةِ المُتَطَرِّبِ
يعْلُو بِهَا حدْبَ العُبابِ مُطَارةً
فِي كُلِّ لُجٍّ زَاخِرٍ مُغْلَوْلِبِ
تَسْمُو بِأجْردَ فِي ٱلْهَواءِ مُتَوجٍ
عُرْيانَ منْسُوجِ الذَّوائِبِ شَوْذَبِ (1)
يتَنَزَّلُ الملاَّحُ مِنْهُ ذُؤَابةً
لَوْرام يرْكَبُهَا القَطَا لَمْ يرْكَبِ
فَكَأنَّما رام ٱسْتِراقَةَ مقْعدٍ
لِلسَّمْعِ إلاَّ أنَّهُ لَمْ يُشْهَبِ
وكَأنَّما جِنُّ ابْنِ دَاوُدٍ هُمْ
رَكِبُوا جوانِبهَا بِأعْنَفِ مرْكَبِ
سجرُوا جواحِمِ نَارِهَا فَتَقَاذَفُوا
مِنْهَا بِأَلْسُنِ مارِجٍ مُتَلَهِّبِ (2)

---

1) الشوذب من الرجال : الطويل الحسن الخلق
2) سجر : ملأت الجاحم : الحجر الشديد الاشتعال

مِنْ كُلِّ مسْجُورِ الحرِيقِ إذَا انبرى
مِنْ سِجْنِهِ انْصلَتَ انْصِلاَتَ الكَوْكَبِ (1)
عُرْيانُ يقْدُمُهُ الدُّخَانُ كأنَّهُ
صُبْحٌ يكُرُّ علىَ ٱلظَّلاَمِ الغَيْهَبِ
ولَواحِقٍ مِثْلِ الأَهِلَّةِ جُنَّحٍ
لُحُقِ الْمطَالِبِ فَائِتَاتِ المهْربِ
يذْهَبْنَ فِيمَا بيْنَهُنَّ لَطَافَةً
ويجلسْنَ فِعْلَ الطَّائِرِ ٱلْمُتَغَلِّبِ
كَنَضَائِضِ ٱلْحيَّاتِ رُحْنَ لَواعِبًا
حتَّى يقَعْنَ بِبِرْكِ ماءِ الميزَبِ
شَرعُوا جوانِبهَا مجادِفَ أَتْعبتْ
شَأو الرِّياح لها ولَمَّا تَتْعبِ
تَنْصاعُ مِنْ كَثَبٍ كَما نَفَر القَطَا
طَوْرًا وتَجْتَمِعُ ٱجْتِماع الرَّبْربِ
وٱلْبحْرُ يجمعُ بيْنَها فَكَأنَّهُ
لَيْلٌ يُقَرِّبُ عقْربًا مِنْ عقْربِ
وعلَى مراكِبِهَا أُسودَ خِلاَفَةٌ
تَخْتَالُ فِي عُدَدَ السِّلاَحِ المُذْهَبِ
فَكَأنَّما البحْرُ اسْتَعار بِزِيِّهِم
ثَوْب الجمالِ مِنَ ٱلرَّبِيعِ المُعْجِبِ

---

1) انصلت : مضى

وصف جواد

وأَقَبُّ مِنْ لُحُقِ الجيـــادِ كَـأنَّـــــهُ
قَصْــرٌ تَباعدَ رُكْنُــهُ عـنْ رُكْنِـــهِ (1)
لَبِستْ قَوائِمُــهُ عصائِبَ فِضَّــــــة
وغَدَتْ بِسُمْــرِ صَفَا المسِيلِ ودُكْنِـــهِ
وكَـأنَّما انْفَجـر الصَّباحُ بِوجْهِـــــهِ
حُسْنًـــا أَوِ احْتَبَـس الظَّــلامُ بِمتْنِــهِ
قيــدُ العُيــون إذا بَصُرْنَ بِشَخْصِــــهِ
ورِضَـــا القُلُوبِ إذا اصْطَلَيْــنَ بِضِغْنِهِ
مُتَسيْطِــرٌ بِــالرَّاكِبِيــنَ كَـأنَّـــــهُ
بــازٍ تَــرُوحُ بِهِ الجنُوبُ لِــوَكْنِــهِ (2)
يستــوقف اللَّحظَات فــي خَطَــرانـــه
بِكَمالِ خلْقَته ودقَّــة حُسْنِـــــــــهِ
حُلْو الصَّهيلِ تَخَــال في لَهَواتِـــــهِ
حــادٍ يصُــوغُ بدائِعًــا مِنْ لَحْنِـــهِ

---

1) الأقب من الخيل : الضامر البطن ــ لحق : ضمر
2) الوكن : عش الطائر

مُتَجبِّــرٌ يُنْبِي بِعِتْــقِ نِجَــــــــارِهِ
إِشْــرافَ كَاهِلِهِ ودِقَّــةُ أُذْنـــــه (1)
ذُو نَخْوةٍ شَمخَتْ بِهِ عنْ نِـــــــدِّهِ
وشَهَــامةٍ طَمحــتْ بِــهِ عنْ قِــرْنِــــهِ
وكَــأنَّــهُ فُلْكٌ إِذَا حــرَّكْتَـــــــهُ
جــــارٍ علَى سهْلِ ٱلْبِــلاَدِ وحـــزْنِــــهِ
قــد راح يحْمِلُ جعْفَر بْنَ مُحَمَّـــــــد
حمْــلَ ٱلنَّسِيــمِ لِوابِلٍ مِنْ مُـــزْنِـــهِ

1) عتق النجار : كرم العنصر .

وصف زهرية

نَمَّ بِالرَّوْضِ خَفْقُ الرِّياحْ
واقْتَدَح الشَّرْقُ زِنَادَ الصَّباحْ
وأَخْجلَ الورْدُ شُعاع الضُّحى
وابْتَسمتْ فِيهِ ثُغُورُ الأَقَاحْ
وقَام فِي الدَّوْحِ لِنَعْيِ الدُّجى
حمائِمُ تُطْرِبُنَا بِالصِّياحْ
مُذْ وُلد الصُّبْحُ ومات الدُّجى
صاحتْ فَلَمْ نَدْرِ غِنًى أَمْ نُواحْ
ويومٍ دجْنٍ حُجبتْ شَمْسُهُ
وأَشْرقَتْ فِي لَيْلِهِ شَمْسُ راحْ
فَما ظَنَنَّا الصّبح إلاَّ دُجًى
ولا حسبنَا اللَّيْلَ إلاَّ صباحْ

طيف الحبيب

طَيْفٌ يزُورُكَ مِنْ حبيبٍ هَـاجِـــــــرِ
أَهْــلاً بِـهِ وبِطَيْفِهِ مِنْ زَائِـــــــرِ
شَقَّ الدُّجى وسرى فَأمْعنَ فِي السُّــــرى
حتَّى أَلَمَّ فَبـاتَ بيْنَ محـاجِـــرِي
يحْــدُو بِهِ هَيفُ القَوام المُنْثَنِـــــــي
نَحْـوِي وسالِفَةُ الغَزَالِ النَّــافِــرِ
للهِ دَرُّكَ مِــنْ خَيــال واصِـــــلٍ
أَسْرى فَــأنْصفَ مِنْ حبيبٍ هَــاجِـرِ
علَّلْتَ عِلَّةَ قَلــبِ صبٍّ هَـائِـــــم.
وقَضَيْتَ ذِمَّــةَ فَيْضِ دَمْــعٍ قَــاطِـرِ

مقتل صاحب الحمار

«فارتقى الملعون من خيفَتهِ   في ذُرى أَعْيطَ عالٍ مُصَّعِدْ (1)
«في ذُرى خَلقاء ملساء على   ذلك المعقِل ليست بِصدَدْ (2)
«معقِل من فوقه الله ومن   تحته المنصورُ في جيش معدْ
«فارتقى المنصور بالسّيف له   يومُ طعن كِشَابِيبِ البردْ
«واثقا بالله في غُربتِهِ   من بني أَحْمدَ ناء مُنْفَرِدْ
«فإذا مخْلَدٌ في كَفِّ الرَّدى   مُوثَقُ الجيدِ بِحبْلٍ مِنْ مسدْ
«قد رمته الحرب عن غاربها   واهي الرّكن ذليل المُسْتَنَدْ
«كَنَفِيضٍ أخرجته أمه   ليس إلا نَبْضَ عِرْقٍ وجسدْ
«فأوى من كَرم المنصور في   كَنَفٍ رحْب وخَفْضٍ ورغَدْ
«طَلَبًا منه لتبقى روحه   وبقاء الرّوح أشفى للكمد
«فأبى الله سوى إعْجالِهِ   وعذابُ الله للجسم أَمَدْ
«فَنَضَا عنه أديما دَنِسًا   كان قد أَسْرفَ فيه ومردْ
«كأديم التَّيسِ لمّا لم يطِبْ   ريحهُ جُرِّدَ منه فَانْجردْ
«وحشَاهُ سالخوه سعفًا   مالئا بين كُعوب وكَتَدْ
«ثُمَّ رقَّاهُ علىَ مُسْتَحْصِدٍ   باسق أَجْرَدَ ما فيه أَوْدْ» (3)

---

1) القصر الأعيط هو الشامخ المنيف .

2) الخلقاء : المستوية الجبين ولعله يعني صعوبة الصعود إليها . وليست بصدد قد تعني ليست بقريبة المنال .

3) نقلا عن حوليات الجامعة التونسية . ع 73/10 : شعراء افريقيون : محمد اليعلاوي ، ص 102

مدح المنصور (1)

أعلن القائم ولاية العهد لابنه اسماعيل المنصور «لسبع خلون من رمضان سنة 334 . . . وكان المنصور يومئذ بلغ ثلاثا وثلاثين سنـــة» .

وفـــي عيد الفطر (من سنة 334) خرج المنصور للصلاة من قصره إلى المصلّى، فصلى صلاة العيد وقام خطيبا . . .»

وقـــال (علي الايادي) في ذلك :

تَوسَّمْ صباح المجدِ من أين يُشـــــرق
وعرْفَ الرضى والحِلم من أين يعبـــقُ
ومثِّلْ ـ على أنَّ النجــوم كثيـــرة
بـــأيِّ سِـــراج تهتـــدي فَتُوفَّـــقُ
لقـــد صـــحَّ للمرتـــاد ما كان يبتغـــي
وصـــاب له الغيثُ الذي كان يُبـــرقُ
وقـــد كانت الأيَّام خُرسا فأصبحـــت
لهـــا ألسُـــن بالشكـــر لله تنطِـــــقُ

1) نقلا عن الحوليات ع 79/71 ـ شعراء افريقيون : محمد اليعلاوي. ص 51 ـ 52 ـ

فما بعد هذا للوسائـل ملجـأ ولا للمنى في غيره متعلَّـق

تليـق باسماعيل نائـرةُ العــــــلا
ويغـــدو بها من غيـره وهـو أليـــق

أميـن تَمنَّتْهُ الرئاسـةُ مذ نشــــأ
تتـــوق إلى أخـلاقـه وتَشَــــوَّقُ

وكانت عيـون الأمـر من شَغَفٍ بـــه
على رِقبـة تـرنـو إليـه وتُطبـــقُ

تـرى غُـرَّةَ الميعـادِ وهي جليــــةٌ
تَخُـبُّ إلى الميقـات فيه وتَعْنـــقُ

وطلعـةَ وجْـهٍ أكمل اللـــهُ نورهَـــا
يكـاد لهـا ضـوءُ النواظر يُـرهَــقُ

وأخلاق مخلـوق مـن البـرِّ والتقـــى
أظـنُّ الرضـى والحِلم منهـنَّ يُخلَـق

فقـد وضعت تلك المـواعيدُ حملهـــا
تمـاما وكانت قبل ذلك تُطلَـــقُ

شهِـدتُ بـأنَّ الله بالغيـب عـالِـــمٌ
وأنَّ أميـر المـؤمنيـن مـوفَّـــق

رأى نجلَـــه من نعمـة الله عنـــــده
يُحــاذيـه في أحكـامـه فتُصـدِّق

عليـه دَلِيـلٌ من تقـاهُ وشـاهِـــدٌ
يلـــوح ونـورٌ من عُلاه ورونَـــق

فــأبــرزه فينــا لكــلِّ مُلمَّـــــــــــة
تُنَــــاطُ بـــه الامـــالُ منَّـــا فَتَعْلَـــــقُ
ولمَّـــا استهلَّـــتْ بالفـــواضِلِ كفُّـــــه
تَيقَّـــنَ بـــاغي الرِّزق من أين يُـــرزَقُ
مـــالت أمـــانيُّ النفـــوس بأسـرهـــــا
إليـــه ، فباتت في ذُراه تُحقَّـــــــــق
فيــا صفــوةَ الله المقدَّسَــةَ الَّتـــــي
تُصبَّـــحُ منَّـــا بالصــلاة وتُغبَـــــق
إليــك شكــونا من أذى برزبــريَّـــــة
نكــاد لها لــولاً ولائِــك نفـــــرُق
وهــذا بصُنــع الله فيــك يصُوننــــا
ونحـــنُ بــه في نَيْــلِ رِفْدِك أرفـــق

سلاح المنصور

أَمـا والقَنَا الظَمـآنِ حِلْفَةَ مُغْـرمٍ
وجُـرْدِ المذَاكِي والصَّفِيحِ المُقَـوَّمِ (1)
وشَهْبـاء مِنْ نَسْـجِ الحدِيدِ كَأَنَّمـا
تُكَلِّلُـهُ تَحْـتَ العجـاجِ بِـأنْجُـمِ
مُسوَّمـةً راحتْ رواحًـا وأَرْبحـتْ
لإِدْراكِ ثَـأرٍ أوْ لاحْـرازِ مغْنَـمِ
لَقَدْ سـنَّ اسْماعِيلُ سُنَّـةَ جـدِّهِ
لِكُـلِّ فَصِيـح فِي البِلاَدِ وأَعْجَـمِ
وقُلِّـدَ حقَّ الْمُسْلِمِيـنَ بِحقِّـهِ
فَتَمَّـتْ بِـهِ النُّعْمـى علىَ كُلِّ مُسْلِـمِ
وكَـانَ بِحمْـدِ اللهِ أَمْنًـا لِخَـائِـفٍ
وعِـزًّا لِمغْلُوبٍ وغَيْثًـا لِمُعْـدِمِ
فَيـا بهْجـةَ الدُّنْيـا بِأَيَّامِهِ ابْهَجِـي
ويـا بيْضَـةَ الْمُلْكِ اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِـي

1) نقلا عن الحوليات ع 73/10 ـ شعراء افريقيون : محمد اليعلاوي . ص ـ 113 ـ 114

وياجمْرةَ ٱلْحرْبِ العوانِ قَدِ انْبرى
لَكِ البحْرُ زَهْوًا فَاخمُدِي أَوْ تَضرَّمِي
وقَدْ قام بِالدُّنْيا وبِالدِّينِ فَاسْتَوتْ
أُمورُهُما مِنْ هَاشِم خَيْرُ قَيِّمِ
مِنَ ٱلْفَاطِمِيينَ الَّذِينَ إِذَا انْتَموْا
إِلَى المجْدِ غَطَّى رأسهُ كُلُّ مُنْتَمِ
مليكٌ إِذَا سلَّ السُّيُوفَ علىَ العِدَى
دَجا اللَّيْلُ أَوْ تُرْوى السُّيُوفُ من الدم
بدِيهَتُهُ فِينَا كَفِكْرَةِ غَيْرِهِ
إِذَا هُو أَمْضَى الأَمْرَ لَمْ يتَنَدَّمِ
فَنِعْم ملاَذُ المُسْلِمِينَ وكَهْفُهُمْ
إِذَا ما خُطُوبُ الدَّهْرِ جاءتْ بِصيْلَم
ونِعْم خَطِيبُ النَّاسِ فِي كُلِّ فَيْصلٍ
إِذَا الخَطْبُ فِيهِ سُدَّ بابُ التَّكَلُّمِ .

طبع بمصنع الكتاب
للشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج — تونس
219/7/82
ديسمبر 1982

صدر في هذه السلسلة

1 - ابن هانئ : احمد خالد

2 - ابن الرومي : احمد خالد

3 - تميم بن المعز : عبد المجيد عطية
عبد الرزاق الحليوي

4 - الطاهر الحداد : جعفر ماجد

5 - ابن زيدون : الطيب العشاش
جعفر ماجد

6 - ابراهيم الحصري : عبد الجبار الشريف
علي دب

الطبعة الأولى - ديسمبر 1982 - سحب من هذا الكتاب 3.000 نسخة

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج - تونس

السعر : 1،200 د.ت
أو ما يعادله